تصوير
Aram Midani

منير كيال

المرأة في المثل الشعبي الشامي

أبو عمرو البغل

في الأدب الشعبي

إذا نال هذا الكتاب إعجابك، فتذكر أن خلف سطوره مؤلفاً أفنى وقته في صياغته، وناشراً بذل جهده في إيصاله إليك. شراؤك للنسخة الورقية هو صيانةً لحقوقهم، وضماناً لاستمرار عطاء المعرفة.

المرأة في المثل الشعبي الشامي

في الأدب الشعبي

موافقة وزارة الاعلام ٤ / ٣ / ٢٠٠٢
عدد النسخ / ١٠٠٠ /

الطبعة الأولي
غرَة ربيع الأنوَر / ١٤٢٣ / للهجرة
حزيران / ٢٠٠٢ / للميلاد

البلاكات والمونتاج : دار أيوبية هاتف : ٨٦ ٢٥ ٣٣٣
الطباعة : مطبعة طربين هاتف : ٦٣ ٧٨ ٢٢٢

منير كيال

المرأة في المثل الشعبي الشامي

في الأدب الشعبي

- الغلاف والإخراج للمؤلف
- الخطوط: الفنان محمد قنوع
- التنضيد: اتحاد الكتاب العرب

لوحة الغلاف: للفنان الدكتور فيروز هزي

الإهداء:

إلى أحفادي

جيل الأمل القادم

منير

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ، غير مسموح بطبع أي جزء من هذا الكتاب او خزنه في اي نظام لخزن المعلومات واسترجاعها ، او نقله او استنساخ او تسجيل واذاعة ومسرحة وترجمة اي نص منه بشكل او بآخر الا باذن خاص من المؤلف .

العنوان : دمشق - ص.ب : ١٧٨٤ - هاتف : ٣١٢١١١٠ - منير كيال

الأمثال خلاصة تجارب المجتمع، ومستودع خبراته، ومنار خبرته، ومثار ذاكرته ومرجع عاداته، وسجل وقائعها..

ونحن نعيش جانباً من مصائرنا من خلال أمثالنا..

وما أحرانا أدباء وشعراء، وقصاصين وفنانين.. أن نوظّف تراثنا الشعبي، وبخاصة الأمثال، في أعمالنا توظيفاً ينمّي الفكر، ويهذب السلوك، ويقيم جسور التواصل بين الماضي والحاضر.

فمن ليس له قديم، ليس له جديد!!

المـَرأة في المثل الشعـْبي
الطفـولة في الـتراث الشعبي
التربيـَة في المثـل الشعبي

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

إن إدراكنا الكامل لتراثنا، لم يعد مقصوراً على الآثار المادية الشاخصة في المتاحف والأوابد الأثرية.. ولا على ما تمثله كتابات الشعراء والأدباء والمفكرين..

فقد تعدّى ذلك إلى كلّ ما له صلة وثيقة بالشعب، وبكل ما هو أصيل فيه، ويتكرر في حياته، ويصبح صفة ملازمة له، وخاصة من خواصّه، يُعرف بها في فترة زمنية معينة، أو عصر من العصور.

وكتابي المرأة في المثل الشعبي الشامّي، أضعه بين يديّ القارئ العربي، مَعْلَم حب ووفاء لدمشق.. دمشق التي يخفق عبيرها في شغاف قلبي، ويسري نسيمها في حنايا أضلعي، وتسطع شمسها في جوانحي منذ رأت عيناي النور.

لقد كان للبيئة الشعبية الدمشقية التي نشأت فيها، وترعرت بين أبنائها، على اختلاف نحلهم في المعاش، وتنوّع شرائحهم الاجتماعية.. أن تعايشت مع الأسرة الدمشقية التقليدية. وتشرّبت كنه الحياة في قصورها ودورها وحاراتها، حتى لكأنني شيء منها، ومن شبّ على شيء شاب عليه.

ولما كان تدوين مقولات الأدب الشعبي بالفصحى يفقدها قدراً كبيراً من الحرية الشفوية التي تتمتع بها، ويبعدها عن الجوّ الشعبي الذي يعكسه المجتمع.. فقد تابعت النهج الذي سلكته في كتابيّ: "حكايات دمشقية، ومعجم درر الكلام في أمثال أهل الشام". بتدوين هذه المقولات كما كانت تنطق أثناء أدائها..

وتيسيراً على القارئ قمت بتقريب بعض الألفاظ إلى الفصحى بشكل لا يمس جمالية اللفظ الشعبي، ونكهته التي تعارف عليها الناس.

وبالطبع لم يكن القصد من ذلك، بحالٍ من الأحوال، دعوة إلى تفضيل الأدب الشعبي على أي من صور الأدب العربي، وإنما أردت ذلك خطوة للوصول إلى الأطر التي كانت تنتظم حياة الناس، وترسم العلاقة بينهم، لدى الدارسين والباحثين.

وجعلت الكتاب في بحثين، الأول لموضوع المرأة في المثل الشعبي، والثاني لموضوع الطفولة في التراث الشعبي، كموضوع رديف ومتمم لموضوع المرأة.

تطرقت في موضوع المرأة في المثل الشعبي، إلى مكانة المرأة في الصرح الاجتماعي، ومكانة الأسرة عبر العصور، ومن ثم الشروع في البحث عن الزوجة، ومواجهة أبناء العمومة إزاء ذلك..

وانتقلت بعدها إلى الأيام الأولى من الزواج، وسلوك الزوج مع زوجه لدى نماذج من الأزواج..

ثم أتيت إلى موضوع الفتاة والزواج، ودور أمّ الفتاة في ذلك، ومواصفات العريس المطلوبة.. وبالتالي المواصفات المطلوبة بالزوجة.. وفي خضمّ تعايش الزوجة مع الحياة الزوجية تطرقت إلى علاقة الزوجة مع حماتها وبنات حميها وضرّتها وسلايفها، ومعاناة الزوج مع حماته.. وموقف زوجة الأب من أولاد زوجها، ومشاعر الأم نحو أولادها.

وفي موضوع الطفولة في التراث الشعبي كان لي وقفة متأنية، لما للطفولة من مكانة في عمر الإنسان، وللأمل المعقود على جيل الغد.

وقد أشرت إلى الطفولة في صدر الإسلام، وأشكال أدب الأطفال من ناحية ما يقدمه الكبار للصغار، ومن ناحية ما يبدعه الأطفال أنفسهم. فأتيت على ذكر ما حفظه لنا تراثنا الشعبي من دور الكبار في اكتساب الطفولة المبكرة وما تقدمه الأمهات من أغاني المهد والميلاد والطفولة، ومضامين هذه الأغاني ودلالاتها، ومشاعر الأم فيها المفرحة منها والمحزنة، ومشاركة الأسرة في تلعيب وترقيص الطفل.

وميزت في ما يبدعه الأطفال أنفسهم، في طفولتهم المبكرة والمرحلة التي تليها، فتعرضت لدلالات هذه الإبداعات، وما كان منها مشتركاً بين الصبيان والبنات، وما كان خاصاً بكل جنس منهما..

وعرّجت على الطفولة في شهر رمضان والعيد ومن ثم الطفولة في دارة الخوجة والكتاتيب.

**

وما كدت أريح القلم من هذا البحث حتى وجدتني منساقاً إلى مضمون

آخـر، مـن مضـامين المـثل الشـعبي، وأقصد بذلك التربية وإسداء النصح والتوجـيه، والتصـدي لمفارقـات الحياة اليومية. فكان هذا المضمون البحث الثالث في هذا الكتاب.

وقد دفعني إلى ذلك أمور كان من أهمها:

طبـيعة الارتـباط بين الأسرة والتربية في المثل الشعبي من جهة، ومن جهـة أخرى، ترافق مقولات الأمثال ومدلولاتها، مع المعايير التي تنتظم حياة الـناس، بشكل يتناسب مع دور المثل في تصوير العلاقات بين أفراد الجماعة، بأبعادهـا ومسـتوياتها ومُثلها ومعاناتها، ومواقفها من الحياة. وبالتالي تولُد أمثال جديدة تنسجم مع الواقع الجديد.

ولا يفوتنـي أن أتقـدم بالشـكر والعرفان بالجميل لكل من لم يبخل عليّ بوافر علمه وفنّه، ولكل من ساهم بوصول هذا الكتاب إلى المكتبة العربية.

والله من وراء القصد وهو وليّ التوفيق.

المؤلف.

*

المرأة في المثل الشعبي الشامي

المَـرأة في المثل الشعْبي

تشكل الأسرة اللبنة الأولى في الصرح الاجتمـاعيّ ، وهـي أهـم عوامل بناء المجتمع ، كما أنها محور العلاقات الاجتماعية ، والملاذ الذي يلجأ إليه الإنسان ، والواحة التي يركـن إليهـا ويـأنس بهـا ، بعيـداً عـن مشاقّ الحياة وأعبائها [1] . والمرء الذي لا يتزوج كان يُنظر إليه على أنه غير طبيعيّ ، أو يكون موضوع سخرية ، وتنعته بعض الشعوب بالتَعِسْ، وعند وفاته تُقيم لـه طقوساً جنائزيـة سـاخرة [2] . وإلى عهـد قريب مـن أيامنـا ، كـان مـن الأهـازيج الـتي يردّدهـا النـاس في عراضة العرس[3] :

هَـــذا العزّابـــي يـــا دِلّـــه	مـــا في مـــين يغسّـــل لـــهْ
دايـــــر علـــى جِيرانـــــهْ	بقملْـــــه وصيبانُــــــــه[4]
صَابونْتـــــــه بجيبتــــــــه	ألله يلعــــــن شــــــيبته .

وتذكر الكتب المقدسة في الهند ، أن الرجل يجب أن يتزوّج وأن ينجب ذريّة ، والرجل الذي له زوجة أعلى بكثير من ذلك الذي لا زوجة له ، والذي يأوي إلى بيت وينفق عليه أجلّ من ذلك الذي ليس له بيت .. والذي له أبناء أرفع مكانة من ذلك الذي ليس له أبناء ..

وكان الفُرس في عهد داريوس ، يرون أن أكبر ميزات الرجل ، الزواج والإنجاب وتربية الذريّة ، ثم فلاحة الأرض ، وكان قدماء

الإغريق يعتبرون الزواج أمراً ذا أهميّة ، وكانت تُتخذ إجراءات ضد العزّاب .. لأن إنشاء بيت ، وإنجاب أولاد ، يعدُّ ضرورة أخلاقية وواجباً عاماً .. وكانوا يفرضون ضريبة على الرجال غير المتزوّجين .[٥]

فالزواج وبناء الأسرة ، شرعة الله في هذا الكون ، وسنّة الحياة في بقاء الجنس البشري ، على هذا الكوكب .. والأسرة محور العلاقات الاجتماعية . والانسان العربي يقدّس الأسرة ويُكبر من شأن الزواج ، ويحرصُ على حماية الأسرة من أيّ عنصر يفسدها أو يعصف بها [٦] .

قال رسول الله ﷺ :

(تناكحوا تكاثروا ، فإنّي أباهي بكم الأمم يوم القيامة ...)[٧]

تفضيلهم العقب الذكر :

جرى الناس على الاعتزاز بالأبناء ، ولدى تفكير الأسرة في إتمام دين ابنها الشاب بالزواج . فإن أوّل ما كانت تُفكّر به ، أن يكون له عقب ذكر يحمل إسمه إن كان غنيّاً ، ويُعينه على تحمل مشاق الحياة وأعبائها إن كان غير ذلك . كان الأب يجتهد في أن يحفظ إبنه القرآن ويجوّده ، ليلتفت من بعد إلى أن يتعلم حرفة (كاراً) ، ربما كانت حرفة الأب نفسه .

وكانوا يَعدُّون البنت همّاً على أسرتها في صغرها ، ومجلبة للعار أو المشكلات في أحيان كثيرة في كبرها . بل إن من الآباء كما عرفت، من كان يرفض البحث في أمر تزويج بناته ، بل مجرّد الحديث في ذلك الموضوع . حتى إنه قد يمرّ على زيجة من تتزوّج منهنّ وقت طويل ، ولا يزور الأب ابنته المتزوجة تلك ، ويتجاهل ذلك الزواج .. الذي تمّ

على شريعة الله تعالى ، وسنّة نبيّه الكريم ﷺ .

كانوا لا يرغبون في إنجاب البنات ، ويلتزمون الصمت المطبق ، عندما تلد الحامل بنتاً ، فيستقبلونها بالوجوم .. وشبهوا حالة الصمت التي تنتاب مجلساً من مجالس النسوة لبرهة من الزمن بقولهن :

■ سَاكْتِينْ مِثْلِ اِللّي (التي) جَابِتْ هُنَّ بِنْتْ .

لأنهم يتصورون أن البنت مشغلة للبال ومجلبة للعار ، ولذلك فإن:

■ هَمّ اِلْبنَاتْ لِلْمَمَاتْ .

وإذا بُشّر أحدهم بولادة البنت ، اسودّ وجهه خجلاً ، وأظلمت دنياه حسرة وأصابه الكدر والهمّ .

قال تعالى في محكم التنزيل [٨] :

﴿ وإذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهُهُ مُسْودّاً وهو كَظيمْ ﴾

أما الولد ، فالبشارة (الهدية) لمن يسبق ويخبر والده بولادته ، والفرحة تعمُّ والزغاريد تطلق والشرابات (المرطبات) أو الكراوية تُدار[٩]، وسفرة الخلاص[١٠] تكون عامرة وهم يقولون في ذلك :

■ اِلْصَبِي مَا أَحْلَى بِشَارْتهُ .. وَلَوْ مَاتْ بِسَاعْتهُ[١١].

وكم من رجل أقسم لئن أنجبت زوجه بنتاً ليطلقنها ، وكم من زوجة بات القلق يساورها ، وتصورت حياتها على كفّ عفريت ، خوفاً من أن تلد بنتاً لا ذنب لها فيها.[١٢] تُرى : هل يُعقل أن تذهب

تلك المرأة التي وضعت بنتاً إلى حمام السوق ، لتبدّل ابنتها بوليد ذكر لغيرها .. علسة ؟!! .. أحل كان يحدث ذلك .. [١٣]

معايشة المثل الشعبي للأسرة :

إذا كان مجتمعنا قد شهد تحوّلات جوهرية في طبيعته ، نتيجة للتحوّلات المتجدّدة التي طرأت على حياته ، والتبدّل الذي صاحب ذلك ، في القيم والعادات والتقاليد . فإنّ أمثالنا الشعبية كانت صادقة الصدق كلّه ، في تصوير مشاعر الناس وأحوالهم ومواقفهم وأنماط سلوكهم ، في إطار الظروف والمعطيات التي سارت فيها تلك الأمثال . وقد صورت هذه الأمثال الأطر التي كانت تحكم صيغ تكوين الأسرة والأمور التي كانت تصاحب الإقدام على الزواج ، أو العزوف عنه ، قبل أن ينفرط عقد الأسرة التقليدية ، وينزع الشباب إلى الإستقلالية ، وقبل أن تتحرر المرأة من قيود تلك الأسرة ، وتقتحم معترك الحياة ، وتكتسب مرونة في التفكير وليونة في التعامل ، وموضوعية في النظرة إلى الحياة .. كانت تحكم الأسرة عادات وتقاليد ، ما لبثت أن أصبحت قواعد للسلوك ، كان من الصعب تجاوزها أو الخروج عنها .. على ما كانت عليه الحياة من طبيعة يومية متغيّرة .

ولمّا كان تكوين الأسرة التقليدي لا يستند إلى العواطف المتبادلة ، ولا إلى الطباع المتوافقة بين الزوجين ، فإن الزوج ، كان في كثير من الأحوال ، يُصاب بخيبة الأمل ، وتنهار أحلامه ، حين كان يرى زوجه ليلة زفافه ... لعدم توافق صورة هذه الزوجة ، مع ما رسمه لها في خياله، من صور زاهية ، في ضوء الصفات والمحاسن التي نقلتها إليه من خطبتها واختارتها له شريكة لحياته .

قلّ حينذاك (أيّام زمان) أن يتعرف الشاب إلى فتاة أحلامه ، التي سيشاركها بناء الأسرة . ومشاعر الفتاة لم تكن ذات شأن .. لأن الفتيات بل والنساء كُنّ يجبرن على ملازمة بيوتهن إلاّ عند الضرورة ، وإذا اضطرت الواحدة منهن إلى الخروج من المنزل ، كانت محجّبة حجاباً تاماً بلون أسود فاحم ، لا يظهر أكثر من كفيّها عند الضرورة . والويل ثم الويل لمن تخرج بالمنديل (البونيه) فتغطّي به رأسها ، كبديل لفحّة الملاءة السوداء[١٤] .

وكانوا يوعزون إلينا نحن الفتيان ، أن نلحق بتلك المرأة (أم البونيه) ونشهرُ بها بقولنا :

أمّ البُونيه الرَقّاصة بِبعَثْ لْهَا حُمّة ورُصاصة .

وقد يشتطُّ الأمر إلى رشّها (رشقها) بماء الفضّة ، جزاء خروجها عن ما تعارف عليه الوجدان الجَمْعي في تلك الأيّام ، وحتى تكون عبرة لمن يعتبر ، ورادعة لمن تسوّل لها نفسها التشبّه بأمّ البونيه تلك ..

ولعل هذا يفسر لنا بقاء كثير من الفتيات عوانس في بيوتهن ، وقد تخطاهنّ سنّ الزواج ، فلا تلْفِتُ الواحدة منهن نظر الخاطبات إلاّ إذا كانت على جانب من الثروة والجاه . بل قد يكون ذلك المال أو الجاه سبباً في عُنسِ الفتاة ، فلا تتزوج حتى لا يخرج مالها إلى غير أفراد أسرتها . وقد رسم لنا الدكتور كاظم الداغستاني في رائعتيه "حكاية البيت الشامي الكبير" [١٥] و "عاشها كلها"[١٦] صوراً صادقة ، للفتاة الغنية الارستقراطية (بنت الذاوات) يوم كانت في سوق العرض والطلب، وتتناوش حياتها المصالح والجشع والجاه .. حتى لا تنتقل

ثروتها من أموال وعقارات وأراضٍ مملوكة أو موقوفة إلى غير أفراد أسرتها ..

فكم من أموال ورثها الرجال من الأخوات أو العمّات أو الخالات .. اللواتي عضلهنّ أولياؤهنّ أو ذووهنّ عَضلاً محرّماً ، فحالوا بينهنّ وبين الزواج ، حرصاً على ما أصابهنّ أو قد يصيبهن من إرث .. فيبقين وقد تخطّين سن الزواج ، عوانس لا أزواج لهن ولا أولاد .

عندما يفكّر الشاب بالزواج :

سجلت أمثالنا الشعبية جانباً كبيراً مما كان يدور في تفكير الشاب والفتاة عند الإقدام على الزواج ، والمواصفات التي يحلم بها كل منهما بنصفه الآخر ، والآمال التي يعقدها الشاب في بناء عشّ الزوجية.

فالإقدام على الزواج أمر يستدعي التفكير والوعي المدروس للتبعات التي تترتب على ذلك ، فإذا كانت الفتاة تنظر إلى الزواج لذاته، وأهلها معنيّون بالتفكير عنها .. فإن الشاب ينظر إليه باعتباره مسؤولية تكوين أسرة . والمثل القائل :

■ اِلْبِيْت مَا بِدُّه كِبْرِيتْ .. اِلْبِيتْ بِدُّه عِفْرِيتْ.

يدلّ بشكل أو بآخر ما يتوجب على الشاب إزاء هذه الخطوة ، إنّ عليه أن يكون كالمارد يلبي جميع الطلبات ويفي بجميع المتطلبات .

النسب والطمع :

النسب أمر هام وأساسيّ للمقدم على الزواج ، ولا بُدّ أن تؤخذ البيئة والطباع والميول والكفاءة ، بعين الاعتبار بين الزوجين .. حتى لا

يجد أيّ من الزوجين نفسه في بيئة تغاير طباعه وسلوكه ، فينتابه الهمُّ والحزُن والكآبة ، لعدم قدرته على التلاؤم مع ذلك الوسط .

وقد حذّرت الأمثال من الإقدام على الزواج قبل الاستعداد لذلك، ونهت الأمثال كذلك عن تعدّي المرء وسطه الاجتماعيّ ، وحطّت من شأن من يطمع في مال الزوجة ومالكاناتها (أملاكها) ، وأطلقت على المرء الذي يسهل الهوان عليه ويتزوج من إمرأة تنفق عليه لقب : "صهر بيت" . وفي ذلك قولهم :

■ يللي ما ياخُذْ مِنْ مِلّتُه .. بيموتْ بعلّتُه. (١٧)

على.أننا لا يمكن بحال من الأحوال . أن نقابل هذا المثل ، بالمثل القائل :

■ تزوَّج الأرمِلةْ وضحاكْ عليها .. خُود من مالها ، وصروف عليها. (١٨)

لأن هذا المثل على طرفيّ نقيض مع المثل السابق ، فقد أرادوا بهذا المثل المرء الذي لا تربطه بزوجه العاطفة الصادقة ، أو الرغبة في الاستقرار . فالمسألة هنا مسألة تقطيع وقت ، ومُتَعٍ عاجلة على حساب علاقة إنسانية سامية .

فصهر البيت رضي لنفسه الهوان ، أما زوج الأرملة المشار إليه ، فقد قبل لنفسه السَّفه والدناءة .

وبعد إسمحوا لي أن انتقل بكم إلى مثل آخر ، في السياق نفسه ، سياق المرء المقبل على الزواج وقد سلك سبيل التعقّل والاتّزان ، والنأي عن الرغبة في مال الزوجة ووسطها الاجتماعي ، وهذا المثل يقول :

■ دِنْ دِنْ يادِنْهْ .. كلّْ مينْ بيَاخُدْ مِنْ إنّهْ. [19]

فمـن يتطلّـع إلى فـوق ، متناسـياً واقعـه ، لا بـدّ واقـع علـى (خندق)[20] رقبته . لأنّ من يغـرق في أحلامـه ، ويظهـر بلبـوس الغِنـى والسَّعة والترف ، يسير في طريق شائكة ، ومركبه وخيم ، وقد نصحت الأمثال هذا النوع من الرجال بقولها :

■ قَبِلْ ما تنَاسِبْ .. حَاسِبْ .

أما من يتعدّى حدود الاعتدال في الانفاق ، فإنّه يزرح تحت وطأة الديون ، وكأن لسان حاله يقول :

■ يلّلي بيتزَوّجْ بالدَيْن .. بيجُوا وْلادْهْ بالفايِزْ. [21]

قال رسول الله ﷺ :

(من استطاع الباءة فليتزوّج .. فإنه أغضُّ للنظر ، وأحصن للفـرج .. ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنّه له وُجاء).

أما من يتزوج المرأة طمعاً في مالها ، أو مركزهـا ، ومـن يزوّجهـا أهلها من كهل على حافة قبره[22] طمعاً في ماله ، فيخاطبه المثل :

■ يا آخِدْ اِلقِرد علَى مَالُهْ ..

بِيرُوحْ المالْ وْبِيضَلّ القِردْ على حالُه. [23]

<u>البحث عن زوجة :</u>

وبالمقابل ، فإنّ الأمثال لا تبخل في تقديـم النصـح للمقـدم على الزواج ، وترشده إلى الطريق الصحيح . فالنسـب حسـب ، والمطلـوب البحث عن الشرش .. وأصالة الزوجة تربية وسمعة وسيرة عطـرة حميـدة

تُكسبها خُلُقاً كريماً ، وطباعاً رضيّة ، تجعلها وفيّة مخلصة ، قنوعة صبورة ، على حلو العيش ومُرِّه .. وفي ذلك يقول المثل :

■ خُوذْ الأصِيلَةْ .. وْنَامْ عَالْحَصِيرِهْ .

قال رسول الله ﷺ :

(إيّاكم وخضراء الدِّمَنْ)

وهي المرأة الحسناء في منبت السُّوء .

قال الشاعر :

لا تنكِحنَّ لئيمة لمحاسنٍ
فاللؤمُ يبقى والمحاسنُ تذهب .

وفي الأدب الشعبي: [٢٤]

حَلاوَة اِللفظ أحلى من شَحادِة الكَفّ.
ووجه اِلبَشُوش يُسوىَ من الجواهر ألف.
خُود الأصيل ولو كان بالعبَا ملتف[٢٥].
لا تاخد النَّدِل ولو كان عنده من الجواهر الف.

لأنّ الجمال الحسيّ طِلاء ظاهريّ قد يُخفي وراءه كثيراً من سوء المنبت .

قال الشاعر :

جمال الوجه مَعْ قُبح النفوس
كقنديل على قبر مجوسي

وهذا يذكرنا بالمثل القائل :

■ لا تدوّرْ على حُمرةْ الخدودْ ..

دوّرْ على الأصلْ والجدودْ. [٢٦]

فالأصيلة ليس من طباعها إلاّ الوفاء والصبر على تقلب الأحوال ، وهي إذا لم تكن على جانب من الجمال ، ولا تخطف الأبصار وتأخذ الألباب ، فإن ذلك ليس عيباً فيها وعلى رأي المثل :

■ الأصِيلهْ .. ما يِنْعيبها جَلاَلْها[٢٧].

والبحث عن الأصالة لا يقتصر على الزوجة ، وإنما عن الزوج أيضاً ، والمثل الشعبي يقول :

■ خطوبْ لِبنتكْ .. ولا تخطبْ لإبنكْ .

لضرورة الاستقصاء عن الخاطب وأحواله ، وأصله وفصله ، وصحبه وممشاه (رفاقه) . وإذا التبس على أهل الفتاة معرفة ذلك فإن أفعاله تدلُّ عليه . وفي ذلك يقول المثل :

■ إنْ غاب عنكْ أصلْه .. بيدِلّكْ عليهِ فِعلْه .

زواج أبناء العمومة :

إذا كان الاغتراب في الزواج له أهمية كبرى صحيّاً واجتماعياً ، لما في ذلك من توثّق عُرى التعارف وتجنّب الأمراض الوراثية ، تأسيّاً بقول رسول الله ﷺ :

(تناكحوا تكثروا ، فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة ، اغتربوا لا تضوّوا).

فقد كان لابن العم ، وأحياناً لابن الخال في الأسرة التقليدية ، أولوية الزواج من الفتاة فابن العم له أن :

■ يِنزِّل إِبنةَ عَمِّهْ عنْ ضَهرِ الفَرَسْ . (٢٨)

ليلة زفّها إلى عرسها . وكان أهل حارة العروس يدافعون جماعة أهل العريس ، إن كان غير ابن عمها ، ولا يمكّنونهم من الوصول إلى دار العروس لنقل الجهاز ، طالما أنّ ابن عم لها غير راضٍ عن ذلك الزواج. وإذا لم يكن للفتاة ابن عم ، كان أهل حارتها لا يمكّنون جماعة العريس من تحقيق مبتغاهم ، إلاّ إذا قدموا لهم عدداً من الأغنام هدية لهم. (٢٩)

وقد حدث أن جرت خطبة فتاة إلى شاب على جانب كبير من الخُلق والثروة ، فما كان من عمّ الفتاة إلاّ أن اعترض على تلك الخطبة ، وأرادها لإبنه ، وكان الفيصل في هذا الأمر المثل القائل :

■ جَمَلْ يِبْرُكْ مَطرحْ جَمَلْ .

كناية عن التزام العمّ بجميع ما ترتّب عن تلك الخطبة .

لأن ابن العم في الأسرة التقليدية ، أكثر اعتدالاً من غيره ، في معاملة ابنة عمّه كزوجة ، فلا يغلط بحق أسرتها ولا يمارس عليها فوقيّة "الأنا"، أو الحسب والنسب . فهو والحال هذه كمن يقول فيه المثل :

■ إنْ بصَقْنا لفوقْ على شَوَارِبنا .. وإنْ بَصَقنا لَتَحْت عَلى دَأْننا (٣٠)

والفتاة بدورها ، في هذه الأسرة أكثر إحساساً بالأمان على

حياتها الزوجية وأكثر تصبّراً على حال زوجها إن كان ابن عمها . ومهما يحدث من إشكالات بين والدة الزوج ووالدة الزوجة "السلايف" بدافع الغيرة أو إثبات الذات .. بل ومهما يطفو على سطح الحياة بين الأسرتين من زغابات وإشكالات .. فإنّ مآلها إلى الزوال كغيمة صيف .

الأيّام الأولى من الزواج :

كان من المُسلّم به في عُرف العامّة ، أن المرأة مخلوقة من ضلع زوجها ، وهي قسمته في أن تكون زوجاً له ، وعلى رأي المثل :

■ الْمَكْتُوبْ .. ما مِنّهْ مَهروبْ .

ومتى آن الأوان ، سيجمعهما بيت الزوجية[٣١] . فإذا اجتمع الشمل ، انعقدت الأفراح وقامت الليالي المِلاح المترعة بالمسرّات والنعومة والرقّة واللطف والمسايرة والأثَرَة . ألم يقولون :

■ لَيالي اِلعْرسْ مِلْسْ .

نعم ولكن لا تلبث الأيام أن تتكشّف عن الحقيقة . وفي ذلك يقول المثل الشعبي :

■ بُكْرَه بِيذُوب اِلثَّلْج .. وبْيِبَان "يظهر" اِلمرَجْ .

■ مَحبّةْ العْرسْ لو دَامِتْ .. القِيامِهْ مَا كَانِتْ قَامِتْ[٣٢]

وقد لعبت الأمثال الشعبية دوراً هاماً في نقل الصور التي تصاحب الحياة الزوجية ، وإذا سارت وذاعت أمثال تحطّ من شأن المرأة ، فإنّ هذه الأمثال ، بالنسبة لعصرنا على الأقل ، ليست أكثر من رواسب[٣٣]

عصر سيطرة الرجل على المرأة ، يوم كانت هذه المرأة عبئاً اقتصادياً على الأسرة . وإذا وجدنا أمثالاً لا تنطوي على الحدّ الأدنى من المعاني الإنسانية ، فإنّ هذه الأمثال ، ليست بالضرورة صورة لمجتمع أسلافنا ، بقدر ما هي تصوير لمواقف لا تخلو منها الحياة ، مواقف تمثّل وجهة نظر على حالة قابلة للتغيّر في ذلك الحين .

فالزوج مطالب في بداية عهده بالزواج ، أن يخفي حبّه واحترامه لزوجه ، ومطلوب منه أيضاً أن يظهر بمظهر الرجولة والبأس ، حتى في ليلة زفه إلى عرسه ، ليفرض احترامه على الزوجة ، فتهابه وتكون طوع بنانه ، فتتصدر كلمة الزوج الساحة وتكون له الكلمة الأولى والأخيرة. وحسب !!.. وما على الزوجة إلاّ الطاعة العمياء .. وإلاّ فلن يستطيع الزوج كبح جماح زوجته ، ولا يقدر على ردّ طلب لها .. وفي ذلك قول المثل الشعبي :

■ أوّصْ القِطّ .. مِنْ لِيلةِ العُرسْ .

■ إِطَاع رأسْ القِطّ .. مِنْ لِيلةِ العُرسْ .(٣٤)

وبالطبع .. لا يمكن بحال من الأحوال ، أن نقرن أيّاً من هذين المثلين ، بقول رسول الله ﷺ :

(علّق سوطَك حيث يراه أهلك) .

كما أننا لا يمكن أن نورد المثل العربي القائل :

"الفرس من الفارس"

"الخيل أعلم بفرسانها"

الطعام، والدخان يكاد يُعمي العيون فضلاً عن ضيق الصدر ..

لأنّهم كانوا يعتقدون أن المرأة إذا أُنهكت في مثل هذه الأعمال كُسِرت شوكتها ، فتكون أكثر طواعية .. وفي ذلك يقول المثل أيضاً :

■ الْشَمْس مِنْ بعد غِيْم .. والمَرا "المرأة" مِنْ بَعْد ضِيم .

فضلاً عن ذلك ، فإنّ المرأة ، في نظر البعض على الأقل ، في تلك الأيّام لأيُؤمَنُ جانبها ، وينبغي أن تكون بعيدة عن أسرار الزوج وأسرته، لأنها جسم غريب شرشه على البلاط .. وغير جديرة بالثقة .

ألم تقل العرب في أمثالها :

" لا تفش سرّك لأمة "

ولكأنّي بهم يقيسون على هذا المثل بقولهم :

■ مَاْ يِفضَحْ ِالبيت ِالكَبِير .. غِيْر ِالمَرْا وِالأجِيْر .

■ سِرّكْ ِلمرتَكْ .. لا تَعْطِيهْ .

والمثل الثاني جزء من مثل تتمته :

■ وُصْي - حَمّامْ لا تماشِيْه . ومِنْ شَحِيحْ ِنعْمِهْ لا ِتتَدَيَّنْ .

وبعد ، كم هي المهانة التي كانوا يُلحقونها بالمرأة .. المرأة التي إذا أعددناها شعباً طيب الأعراق .. يقرنونها بالأجير ، صبيّ الخدمة في الحرفة،(٣٨) أيّ عصر كان ذلك العصر ، من إنسانيّة الإنسان !!.

صور من الرجال في المثل الشعبي :

وكان من الصور التي حدثتنا عنها الأمثال الشعبية ، مما يمكن أن نورده في هذا المجال ، صورة الزوج الذي حرم السعادة الزوجية وأنسها وسَكَنها ، فتتداح في رأسه الذكريات ، وتحوم أمام ناظريه حوم فراش أمام ضوء من شعله ، فيرى بكل أنثى تقع عليها عينه مطلباً ، وبكل طيف رغبة . فتصور له عينه وترسم له مخيلته ما كان وما لم يكن !! . عنيت بذلك المثل القائل :

■ أعْزَبْ دَهِرْ .. ولا أرْمَل شَهِرْ .

أمّا من يعيش وحيداً ، لا أهل له ولا حمولة أو أقارب ، بل ولا من يلوذ بهم من صحب .. فهو مرغوب فيه مفضّل إذا خطب فتاة للزواج ، لأنه على حدّ قول المثل :

■ مَاطْوِعْ مِنْ شَجَرَة . (٣٩)

لانعدام المشكلات التي قد يسبّبها أهل الزوج وأقاربه للزوجة .

ثمة صور أخرى قدمتها الأمثال لطائفة مِنَ الرجال ، مِمّن وجهت إليهم إصبع الاتهام ، في قالب من الطرفة المبطّنة حيناً ، والتورية حيناً آخر ، والنقد اللاذع أحياناً أخرى .

فالموسر يبخل على أهله حتى بالقليل الضروريّ لأود الحياة يقولون فيه :

■ صَارْ .. مِنْ رِيحة تَمّهْ . (٤٠)

ومن يقتّر على عياله ، ويجعل الدنيا أكبر همّه يقولون فيه :

■ مالْ الْخَسِيسْ .. بِيرُوحْ فْطِيسْ .

لأن المال وسيلة للسعادة ، وليس للاحتراز والحرمان . وحريّ بالإنسان التنعّم بما رزقه الله ، وأن لا يحرم أسرته سعادتها ورفاهها ، فالمال وسيلة وليس غاية .

والفقير المعدم (المنتوف) إذا تظاهر بالسّعة يقولون فيه :

■ أهل الْفَتْ .. مِشْتهِيّن المرأهْ . (٤١)

■ جَرَادِين بيتْه .. مَاشْيِين عَالْعَكَاكِيز . (٤٢)

وربّ البيت مطالب ، في جميع الأحوال ، أن يكدّ ويسعى ، ويكسب رزقه بعرق جبينه ، للوفاء بمتطلبات أسرته ولا شيء يعيب الرّجل أكثر من عدم قدرته على ذلك ، تأسياً بقول المثل :

■ الرجّال ما بيْعِيبُه .. غِير جيْوبْهْ .

وهذا بالطبع إذا فرغت ، وهو أي الرجل :

■ إنْ فِضيتْ جيوبْه .. كِتْرِتْ عيوبْه .

قال الشاعر :

وعين الرضا من كل عيب كليلة ... ولكنّ عين السخط تبدي المساويا .

لأن بعض النساء ، قد لا يصبرن على ضيق ذات ربّ الأسرة ، فيتناسين ما كان عليه من نِعَم ، ويصبح في نظرهم سِكّة عُطل ، لا خير يُرجى منه .. هذا النوع من البشر يطلق عليهم المثل لقب :

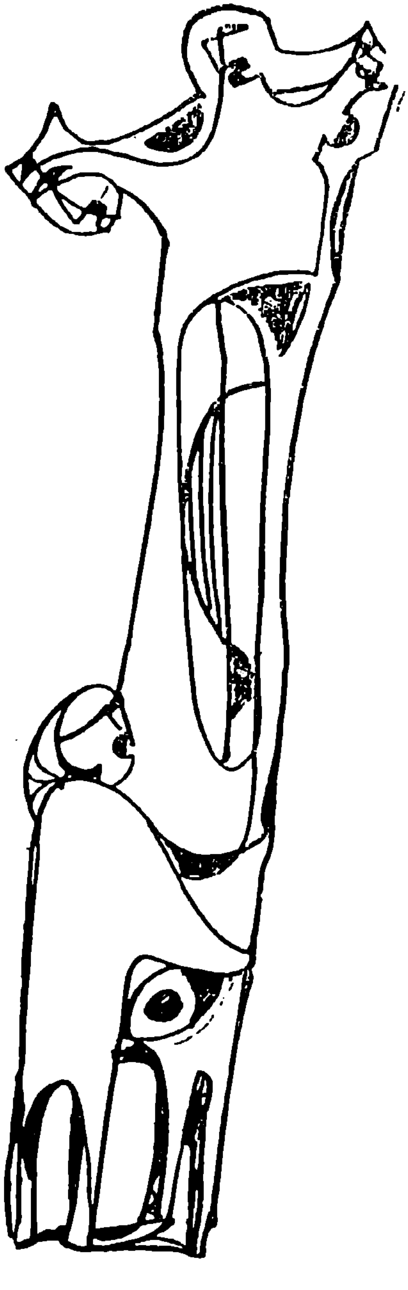

■ مِلحُهُم على دِيْنُهم.

■ مِثِل الأطاطْ .. بيّاكُل وُبْينكرْ . (٤٣)

أما من يكون برّه وكرمه ، لأبعد الناس ، وأهله أحوج في ذلك منهم ، فيقول المثل فيه :

■ مزَاْرِيبُه ما بِتطرؤ .. غِير لَبَرّهْ . (٤٤)

والمشاكس المناكف ، يسوقه نزقه وتهوّره إلى التشاحن والخلاف مع أقرب الناس إليه ، فلا يُبقي مجالاً لتوادّ أو صلة ، يقول فيه المثل :

■ ما خَلّى لِلصلحْ .. مَطْرحْ .

ومن لا يفرّق بين الحلال والحرام ، وليس لمطامعه حدود ولا قيود، ولا رادع له من دين أو ضمير ولا عُرف . يقولون فيه :

■ ما بِنحَلّلْ .. ولا بِنحَرّمْ .

المرأة والزواج :

على الرغم من عدم ارتياح الأسرة التقليدية لولادة الأنثى ، فإنّ هذه الأسرة سرعان ماتألف هذه المولودة ، وينفتح قلبُها لها ، وتصبح أثيرة على نفوسهم .. وبخاصة بعد أن تأخذ هذه الطفلة في وعي الأشياء واكتساب المعرفة ، وبعد أن تستجيب إلى التعامل مع ما يصل إلى مسامعها ، أو يقع عليه نظرها .. وتمر الأيام والشهور والسنون سِراعاً ، فإذا بطفلة الأمس صبيّة تملأ الأسرة لهفة وحنوّا وأنسا . وإذا هي تستأثر بكثير من محبّة الأسرة ، وتحتلّ مكانة متميزة من التقدير والاهتمام .. ويزداد ذلك الاهتمام ، كلما اقتربت الصبيّة من مرحلة النضج وتكامل

قيمة اجتماعية لم تكن لها بين أبويها واخوتها ، لذلك فهي تعمل على حماية حياتها الزوجية ، وتستميت في الدفاع عنها ، في وجه المشكلات التي قد تطفو على السطح بين حين وآخر ، مما قد يجعل تلك الحياة ، بين مدّ جزر وإشراق وفتور .

دور أمّ الفتاة :

الأم بطبيعتها أكثر التصاقاً بابنتها ، وأكثر معرفة بما تعانيه ، فالأم سرّ ابنتها ، وهذه الأم حريصة الحرص كلّه ، على أن تكون ابنتها سيّدة في بيتها ، لا أن تكون ضحية لأسرة زوجها ، فهي لاتني تزرع في خلَد ابنتها أن تأخذ زمام المبادرة في الأمور الأساسية في علاقتها مع زوجها .. فهي أن جعلت زوجها إلى جانبها ، لا يشتطّ عليها كائن من كان ويرسم لنا المثل الشعبي هذه العلاقة بقوله :

■ يلّلي زُوجهَا مَعْها .. بِتدورْ اِلقمَرَ بِاصبْعْهَا

■ زَوجِكْ على ما عوّدْتيه.

وتتمة المثل الثاني :

■ وابنكْ عَلى مَا ربّيتيه .

فالأم تلقن ابنتها أبجدية التعامل مع المواقف التي قد تتعرّض لها ابنتها مع أهل الزوج فتنشأ البنت على شاكلة ما تكون عليه أمّها في السلوك والطباع . وفي ذلك يقول المثل الشعبي :

■ طبّ القِدرَة على تمْها .. بِتطلَع اِلبنتْ لأمّها .

مواصفات العريس المطلوبة :

فالأم تريد لابنتها عريساً يسعدها ، تريده أن يكون رهن بنانها ، أن ينسلخ عن أسرته ، ويكون لابنتها وحدها . وهي وإن نصحت إبنتها مسايرة أهل زوجها ، فإن ذلك بدافع كسب ابنتها وُدّ زوجها ، وفي ذلك المثل الشعبي القائل :

■ كِوْمَال عِينْ .. تِكْرَمْ مَرْج عيُون .

لأنها في النهاية تريد من ابنتها أن تستأثر بزوجها وتستقلّ به وتسلخه ما أمكن عن أسرته لأنّها في قرارة نفسها تنطلق من المثل القائل:

■ إلِي مِنْ الحِزْمِه عُودْ .. والبائي تِنتّعهْ الأرُوْد . (٤٦)

وبالطبع ، فإنّ أهل الزوج يعدّون هذا المثل نبراساً لعلاقتهم مع أهل الزوجة عندما تسوء الحال بين الأسرتين .

مواصفات الزوجة المطلوبة :

إذا كانت الحماة (أمّ الزوجة) تريد أن يكون صهرها لها ولابنتها، فإن أهل الزوج بدورهم يريدون أن تكون (كنتهم) زوجة ابنهم مطواعة ليّنة العريكة . تقبل بكل شيء ، ولا تتأفف من أي شيء ، أن تكون :

■ مِثْل الأمِله اِلْمفروُكِه .. لا شَوكِهْ ولا دبّاحَة. (٤٧)

كناية عن استكانة الزوجة وامتثالها لرغبات أسرة الزوج وتعايشها مع طباعهم . ومع هذا وذاك فإنّ الزوجة المسايرة ، شديدة الحرص على

حياتها الزوجية ، على ما يكون عليه الزوج من توافق مع موقف أسرته. ولا تستغرب إذا كان من النساء من كانت لا تصدق أن تعود إلى منزلها حتى تتنفّس الصعداء وكأن لسان حالها يقول :

يـــا بيــــتي يـــا بُويتـــاتي ، يـــا مخبّـــي لي غُويـــاتي.
فيـــك عشـــت وفيـــك ربيـــت ، وفيـــك بقضّـــي حيـــاتي.

وزوجة على هذه الشاكلة ، لا تقبل بأي حـال تدخّـل عـزول في حياتها الزوجية ، كائناً من كان .

تعايش الزوجة :

رسمت الأمثال الشعبية للزوجة السـبل الـتي تراهـا مناسـبة لحمايـة حياتها الزوجية ، فهي في قناعتها وفي أسـوأ الأحـوال كمـا يقـول المثـل الشعبي تعتقد أن :

■ الرجّال رَحْمِهْ .. ولو كان فَحْمِهْ . (٤٨)

وفي المثل العربي :

"زوج عود .. خير من قُعود"

وقد سار هذا المثل الشعبي على لسان العامة لبيان ما تعانيـه المـرأة من سوء طباع الزوج وقسوة معاملته لزوجتـه . ويـأتي في هـذا الإطـار المثل القائل :

■ زَوْجْ مِنْ خِيطَانْ .. وْلاَ شَمَاتِةْ الجيرانْ . (٤٩)

لبيان مكانة الرجل في الأسرة ، مهما كانت قدراته .

وكان من رواسب الماضي التي تقضي بخضوع المرأة لزوجها مسلوبة الإرادة والتفكير أمثال نورد منها :

■ عِرقْ آسْ .. ولا شَمَاتِةِ الناسْ . (٥٠)

بمعنى أن المرأة تقبل حياة أهل القبور على أن تبقى بلا زوج يحميها ويلبّي طلباتها وحاجات منزلها .

ومن هذه الأمثال :

■ ما بشتِغِلْ ولا زُوجِي بيْعَطِيني .. والسَعَادةْ مِنِينْ "من أين" بدها تواليني َ

للدلالة على كون المرأة عبئاً اقتصادياً على الأسرة التقليدية ولا حول لها ولا طول بدون الزوج .

ومن هذه الأمثال أيضاً :

■ يلْي بِدْها تاخُذْ الفَحِلْ .. بِدْها تِغْوَا "تغرق" بالوحِلْ .

وقد عنوا بذلك استنكار الأسرة التقليدية لتأفّف الزوجة من مهام بيتها وأعبائه ، وإهمالها واجباتها نحو زوجها ، حتى تضمن السعادة والهناء في حياتها الزوجية ، بالغاً ما بلغت تلك المسؤوليات .

ولعل المثل القائل :

■ لِقمِةِ العَرِيس مأمّرْةْ .. ما بتَاكِلْهَا إلاّ كُلّ مشمّرْةْ (٥١)

يأتي في السياق نفسه .

والمرأة الخاملة "الحوبة واللّكعة" غير المبالية بشؤون بيتها ، ولا تُعنى بأناقتها وأنوثتها ، ولا ترعى راحة زوجها وسعادته .. ينصحها المثل الشعبي بقوله :

■ **غَسّلي وُجْهِكْ ما بتعرفي مين بيبوسه .. ونظفي بيتك ما بتعرفي مين بيدوسه.** (٥٦)

لأنّ المنزل للرجل واحة يركن إليها ، وملاذ آمن يطمئنّ فيه ، وسكَن نفسيّ يتوق إليه قلبه ، ويرتاح فيه من عناء العمل وصروف الحياة .. لتجديد نشاطه ومواجهة مشاكله الحياتيّة .

فإذا لم يجد الرجل في بيته اللقمة الهنيّة ، والمخدّة الطريّة العطرة ، والوجه الصبوح يفتُر ارتباطه بزوجته ، ويتخلخل التزامه ببيته ، ويشرع بالبحث عن الحلّ ، وقد يكون ذلك سبيلاً إلى التفكير بالزواج من إمرأة أخرى ، ترعى شؤون بيته ، وتسهر على راحته .

وقطعاً لدابر تلك المشاعر ، واستئصالاً لذلك التفكير ، تنصح الأمثال الزوجة بالاهتمام بحاجات زوجها ، والقيام بواجباتها نحو بيتها .. ومن هذه الأمثال :

■ **قِصّي طيزِك .. قَبِلْ ما يوَلّفْ على غيرِك .** (٥٣)

لأن التهاون في مثل هذه الأمور ، يجعل الزوج في غنى عن حياته الزوجية . مهما كانت عليه زوجته من حسب أو نسب وجمال ، لأن :

■ **كِتْرْ الدَلالْ .. بيهرُبْ العاشِقْ .**

أما إذا كانت الزوجة حروناً سليطة اللسان ، ولوعة بالمشاكسة

والمناحرة ، لا تحترم قريباً ، ولا توقّر كبيراً .. وهي على حد قول المثل الشعبي :

■ ما عِنْدَها كبير .. غير الْجَمَلْ .

■ عَمْ تَغطي كِلّ مِنْ شاطلْه "نصيبه من التعدّي" تَحتْ بَاطلْهْ .

مثل هذه الزوجة تجعل الزوج يلعن الساعة التي اقترن بها .. وكأن لسان حاله يقول :

■ تزوْجْنا لِنِنْسِتِر .. سقَا الله أيّامْ الْفَضَايِحْ . (٥٤)

وتكون المرأة في هذه الحال كمن قال فيها المثل :

■ بالنّهار خَرّبتْ بِيتها .. وبالليلْ حَرّقت زِنتها . (٥٥)

نتيجة للأرق وتبكيت الضمير ، على سلوكها ومواقفها السيئة مع الآخرين .. وتقضي ليلها وحيدة لا أنيس لها ولا سمير .. فتندم .. ولات ساعة مندم .

مسوّغات معاناة المرأة :

لعل من الممكن أن نُرجع جانباً كبيراً من المشكلات التي تقع بين الرجل وزوجه إلى تفشّي الأمية في أغلب النساء في ذلك الحين ، الأمر الذي سهّل التغرير بهنّ على نحو ما من قِبَلِ المشعوذين .. وقد لعبت العجائز اللواتي امتَهنّ الترويج لأولئك المشعوذين ، فضلاً عن دورهنّ في ولوغ المرأة في الخطيئة ، دوراً كبيراً في معاناة المرأة . وكان فراغ المرأة وكونها عبئاً اقتصادياً على الأسرة ، كما ذكرنا ، سبيلاً إلى كون المرأة في الأسرة التقليدية أكثر طواعية وانقياداً .

وكان من نتيجة ذلك ، انطباع العديد من أمثالنا الشعبية بأشكال السيطرة التي كان يمارسها الرجل على زوجته .. وامتثال هذه الزوجة لهذا الوضع وتقبّله ، بدافع الاعتراف بالخطأ من جهة ، والخوف على مستقبل حياتها الزوجية من جهة أخرى . حتى لكأن لسان حالها يقول، كما نقلته لنا الأمثال :

■ خلّيها بالقلب تجرح .. ولا تطلع لبرّه وتفضح. (٥٦)

مستعينة على مداواة ما تعانيه بالصبر والمصابرة ، معلّلة نفسها ، بتغيّر الحال ، لأن بقاء الحال من المُحال ، "وما في شيء بيدوم غير الحيّ القيّوم" جل وعلا .. كل ذلك حتى لا يشمت بها العزّال ، وحتى لا ينال منها من يصطاد في الماء العكر .

قال المتنبيّ :

ولا تشكُ إلى خلقٍ فتشمتَهُ   شكوى الجريح إلى الغربانِ والرَّخم .

ولعلّها آثرت الخروج من محنتها بالتروّي والمسايرة والمقاربة على رأي المثل القائل :

■ يللي بِدُّه يعاشِر الأزوَاخ .. مَا بِدُّه يكُون نوَّاح . (٥٧)

وهكذا فإنها تقنع بما آل إليه أمرها تأسّياً بقول المثل :

■ شو صبَّرَكْ عالِمُرّ .. الأمَرّ . (٥٨)

فالزوجة إنما تقبل بذلك الوضع ، خوفاً أن يصل الأمر بينها وبين زوجها إلى طريق مسدود ، ولأنها تدرك أنها إذا غادرت بيتها ، فإن زوجها قد يركب رأسه ، ويعمد إلى الزواج من غيرها .. وبذلك ينطبق

عليها قول المثل :

■ بختك "حظك" رَدِي .. لا تحزدي .

أما إذا تفاقمت الأمور ، وتمزقت حبال الودّ بين الزوجين ، وتصرّم بريق الحب والوفاء بينهما ، ولم يعد في مقدور الزوجة الصبر على تعديات زوجها عليها وعلى أسرتها ، وامتداد يده عليها بالتقريع والضرب أحياناً ظلماً وعدواناً .. فإنها تحزم أمرها وتغادر بيت الزوجية وقد أخذت على نفسها عهداً بعدم العودة إلى بيتها ما لم تعد الأمور إلى نصابها ، ويكون لها المكانة والاحترام .. لأن عودة المرأة إلى منزلها وقد فقدت قدرها وهيبتها وعزّتها يكون كمن يقول فيها المثل الشعبي :

■ الحرْدانه .. بتروحْ قَمْلِه ، وبترجعْ صِيبَانِهْ . (٥٩)

وكان من الزوجات ، من يعتقدن إن :

■ المسَايرَهْ تلِيِنْ "تلتي" المَعيشِهْ .

لأنها توصل إلى صيغة مقبولة للتعايش مع الزوج ، وتكون سبيلاً لقطع دابر ما يعكّر صفو حياتها .. إيماناً منها بالمثل القائل :

■ يلّلي زُوْزها "زوجها" مَعها .. بتدْوّزْ القَمَرَ بإصبَعها .

وعندئذ ، لا يهمّ وضع الرجل الماديّ ، فالغنى غنى النفس ، والقناعة كنز لا يفنى . لأن الرجال كما تقول الأمثال :

■ الرِجَال مِثل الشَجَرَ .. بِتعْرى وبْتِنْكسَى .

والزوجة التي تنصاع لمعسول الكلام ، والوعود الورديّة ، حتى إذا تصرّمت "ليالي العرس .. الملس" ، تكشّفت لها الأيام عن خبيء نوايا

الزوج ، وبدت حقيقة أمره ماثلة للعيان ، وكأن لسان حالها يقول :

■ يا مأمِنةْ بالرِجَالْ .. يا مأمنةْ بالمَيّ بالغِربَالْ . (٦٠)

وتعضّ أصابعها ندامة ، ولات ساعة مندم ، وبخاصة بعد ذبول نضارتها . وكأن لسان حالها يقول :

■ أخَذَتْنِي لَحِمْ .. وزُمَيْتني عَضمْ "عظم" .

وهي إن تحملت وصبرت وصابرت، فإن حالها أشبه بالمثل القائل:

■ لا مُعَلَّاهْ .. ولا مُطَلَّأهْ . (٦١)

لأنها لا تعرف مصيراً واضحاً لحياتها الزوجية ، وهي مرهونة بمزاج زوجها ، الذي لا يستقرّ على حال سواء في المعاشرة والصفاء ، أو في القطيعة والجفاء .

أما إذا أبت الزوجة ذلك الوضع ، ولم ترضَ بالهوان ، فليس أمامها إلاّ المثل القائل :

■ مَن بَاعكْ بالفُول .. بيعه بالقشُورْ . (٦٢)

وقد تجد من معارفها أو أسرتها من يقول لها أنّ :

■ ألفا إيدهَا .. لِوْشُه مْزايهْ . (٦٣)

وذلك على سبيل الموازنة بين الزوجين ، في الخُلُق والخِلْقه والسلوك والمعشر . ولا بُدّ من القول ، إن أمثالاً كهذه، ليست بالضرورة صورة لمجتمع أسلافنا ، بقدر ما هي تصوير لمواقف لا تخلو منها الحياة ، ولعلها مواقف تمثل وجهة نظر عن حالة قابلة للتبدل ، لأنّ:

■ مَنْ تهُوْن عَليه الِعشْره قْلِيل أصِلْ .

***

الأسرة .. أيام زمان

كانت الأسرة في الشام أيام زمان ، أشبه بالقبيلة ، تضمّ الجدّ والأولاد والأحفاد وزوجاتهم وأولادهم ، حتى وصل تعداد المتعايشين في الدار الواحدة في بعض الأحيان ، إلى ما يزيد عن خمسين شخصاً ، يعيشون في دار واحده ويأكلون من طبخة واحدة ، يكدّ الرجال في أعمالهم ، وتقوم النسوة على أعباء المنزل. (٦٤) ويقوم كل منهم بدوره في هذه الأسرة ، في إطار نوع من القناعة والتسليم بما كانت عليه الأعراف والعادات ..

وإذا كانت الأمور في الأسرة تسير على ذلك النحو ، فإن النفوس كانت في كثير من الأحيان ، تحمل في طيّاتها شيئاً من عدم الرضى والامتعاض ، نتيجة لتباين الأمزجة والطباع والأهواء والنزعات الفردية التي كانت تعتلج في النفوس كشكل من أشكال الدفاع عن الذات والكرامة الشخصية .. وقد تبدّى ذلك في العلاقة بين الحماة وبين الكنّة (زوجة الابن) وبين الكنّة وبنات حميها ، وبين السلايف فضلاً عن العلاقة بين الضراير.

الحماة والكنّة :

لم تكن العلاقة بين الحماة والكنة (في الأسرة التقليدية) تسير على طريق سويّ ، كانت قائمة على الكراهية المتبادلة بين الطرفين ، لأسباب وظروف نفسية واجتماعية ، وقد تأخذ شكل صراع من أجل إثبات الذات . فالحماة تنظر إلى كنّتها نظرة فوقيّة , ولا ترى فيها أكثر

من متعة لابنها[٦٥]. وهي في جميع الأحوال غريبة (كالأجير) كما ذكرنا لا يجوز أن تعامل معاملة أهل البيت .. وعلى الكنّة أن تكون طوع حماتها ، حتى ولو قالت لها إن اللبن أسود !!..

وكان من أشكال فرض الذات والساديّه في معاملة الحماة لكنّتها، أن تجعل الكنّة في ليلة زفّها إلى عرسها ، تمرّ من بين قدمي حماتها ، وتُقبّل يديها وتطلب الرضى منها .. قبل أن يختلي بها زوجها[٦٦] ..

ويذهب البعض ، إلى ربط سلوك الحماة إزاء كنّتها .. بعاطفة الأمومة تجاه الابن (الزوج) والخوف من أن تأخذ الكنة ولدها ، الذي أرادته لها وحدها .. فضلاً عن الغيرة من الكنّة ..

فالحماة ترى في الكنة منافساً لها على قلب ولدها .. ولذلك فهي لا تني توصيه أن يأخذ زوجته بالحزم والبأس ، وأن لا يُريها سِنّه الحلو. مخافة أن تسيطر الكنة ، وتسقيها من نفس الكأس الذي أجبرتها على تجرّعه .

فالصراع والحال هذه كان تقليدياً ، ومشاعر العداوة متوارثة بين الطرفين . وكان للسكنى المشتركة وانضواء الزوج تحت جناح أمه ومشيئتها .. أن كانت الزوجة خاضعة وبلا رحمة للحماة ، الأمر الذي يشكل غصّة في نفس الزوجة ويجعلها لا تنسى تلك المعاملة المجحفة من حماتها وذلك الجرح لكبريائها والانتهاك لكرامتها ، بل والافتئات على حقوقها الزوجية والتهديد لكيانها كسيدة بيت وأمّ أولاد .. ولا يستبعد أن تتحيّن الفرص للاقتصاص لنفسها واسترداد ما سُلب منها .

ومع هذا كلّه ، فإن واقع الحال لا ينفي أن تكون الحماة على نحو

مغاير لما ذكرنا ، وبخاصّة إذا كانت في مرحلة متقدمة من العمر ، كما قد لا يأتي الافتراء من جانب الحماة ، بل قد تتسبب به الزوجة إذا كانت على جانب من قوة الشخصية والنزعة العدوانية ، وكانت على جانب من الجمال ومهارة في الدلع ، بحيث تستطيع أن "تأكل بعقل زوجها حلاوة" كما يقولون ..

وقد حدثتنا الحكايات الشعبية التي كانت محور سهرات أيام زمان، عن نماذج من ذلك السلوك[٦٧] . يوم افتعلت الزوجة في ليلة عرسها الوقوع ، فأمسكت بها حماتها قائلة : الله والنبي جارك .

فأجابتها الكنة : (حيّة فاتت على ديارك ، أخذت ما ربّيتي ، ونكرت ما خبّيتي ، كان البيت بيتك ، صار البيت بيتي !!) .

ولو أن الزوجة نظرت إلى حماتها باحترام وتقدير ، نظرتها إلى أمّها ، ولو نظرت الحماة إلى كنّتها نظرتها إلى ابنتها ، وأبدت التسامح والمسالمة معها .. فإن الكنّة لا بدّ أنها سوف تتأقلم مع طباع أسرة زوجها وأسلوبها في الحياة ، فيسود الودّ وتخيّم السعادة والمحبّة والإيثار على الجميع .. وهذا ما عبّر عنه المثل الشعبي :

■ الكِنّهْ .. بدّها كنّهْ .

ولكنّ الرياح تجري بما لا تشتهي السفن . فالصراع كان أزلياً ، وقصصنا الشعبي حافل بأخبار تلك العلاقة بين الحماة والكنّه ، يوم كانت المرأة تعيش عصر الحريم .

وقد صوّر لنا المثل الشعبي تلك المشاعر والأحاسيس بأمثال كثيرة ومن ذلك قولهم :

■ يا حَمَايْه .. ما كنتِ كِنّهْ .. كِنْتْ ونسيتْ .

كناية على الإصرار والتعنّت في معاملة الحماة للكنّة .

ومن هذه الأمثال :

■ مَكتُوبْ عَلَى وَرَا الجَنّة .. عِمرْهَا حَمَايهْ ما حَبّت كِنّهْ . (٦٨)

للدلالة على ذلك العداء التقليدي بين الحماة كسيّده تمتلك جميع مقدّرات البيت ، والكنّه التي ترى فيها الحماة منازعاً لها على سلطاتها لتحلّ محلها إن عاجلاً أو آجلاً .

والكنّة إذا قبلت بنصيبها ، وصبرت وصابرت على معاملة حماتها لها ، فإنّ دوام الحال من المحال ، فسيأتي الأولاد ، ويملؤون الدار أنساً وحبوراً ، وإذا لم تغيّر الحماة من سيرتها مع كنّتها فإن الكنّة بعد أن يشتد ساعدها ، وتمتدّ جذورها بأولادها ، ستعمد بلا أدنى شك إلى وضع الأمور في نصابها .. وبالتالي لم يعد في مقدور الحماة أن تقول لكنّتها :

■ مَقسوم لا تاكْلي .. وصحيح لا تِقْسمي .. وكِلي لِتشبَعي .

لأن مقدرات المنزل ستكون في يد الكنّة ، والحماة تحت رحمتها .. ونزعة الشر والانتقام ستجعل الكنة تحرم حماتها من أطايب الطعام ولسان حالها يقول :

■ خِمّيْ وبْاتي .. ولاَ تاكِلِكْ حَمَاتي . (٦٩)

وإذا لم يتجاوب الزوج مع زوجته في موقفها مع أمه فإن الزوجة ستقول :

■ اِلْكَيّ بِالنَّارْ .. وْلاَ حَمَايِتِي بِالدَّارْ .

الزوجة وبنات حميها .. والحماة :

تكون مصيبة الزوجة أدهى وأمرّ ، إذ كان لزوجها شقيقات يعشن معها ، عندئذ ستُحكم الرقابة عليها ، وتَعدُّ أنفاسها وحركاتها وسَكناتها ، حتى ولو كانت مستغرقة في نومها . وإذا لم تكن الزوجة على جانب من الأناة والتصبّر والمداراة ، أصبحت حياتها جحيماً لا يُطاق .. لأنّ الحماة بطبيعة الحال ستنحاز إلى بناتها . وحتى لا تواجه الزوجة مشكلات التعامل مع بنات حميها ، وتكون عاملاً في تنغيص حياتها الزوجية ينصحها المثل الشعبي بقوله :

■ صَالْحِي بِنْت حْمَاكِ .. وْخَانْقِي "تخاصمي" زُوجِكْ .

ومن الأمثال الشعبية التي تصوّر طبيعة الأنا المسيطرة على الحماة نحو كنتها ، المثل القائل :

■ شَمْس اِلْحَصِيدِه لِبْنَيّتِي .. وْشَمِسْ الزْبَارْ لِكْنَيّنْتِي .

فالحماة هنا تريد أن تكون شمس الربيع المنعشة الدافئة لإبنتها .. أما شمس كوانين وشباط الباردة لكنّتها .

والمثل التالي يصور مشاعر الزوجة نحو حماتها وبنت حميها :

■ اِلْحَمَايِهْ حِمّهْ .. وبنت الإحْما عَارْبَهْ مْسِمّهْ . (٧٠)

وهذا يفسر رغبة شقيقة الزوج (بنت الإحما) أن تعيش وحيدة على أن تسكن مع الكنّة ومن ذلك المثل القائل :

■ اِتْرِكْني بِمَطْبَخِي .. وْلاَ تاعَذِبْني عِنْد مَوْت اِجِي [71]

حماة الزوج :

وبالمقابل ، فإنّ الزوج لم يكن في مأمن مـن حماتـه ، فقـد كـانت حياة الأسـرة التقليديـة في الشـام حتـى أواخـر العقـد الرابـع مـن القـرن العشرين ، مشحونة بالمشكلات ، الناجمة عن تدخل أمّ الزوجـة في كـل كبيرة وصغيرة من حياة ابنتها مع صهرهـا .. وكـان مـن الحمـوات مـن أُطلق عليهنّ لقـب : "خرّابـة البيـوت العـامرة" . صحيـح أن منهـنّ مـن تفاخر بصهرها ، وتعدُّه "مسند ظهرها" كما يقولون ، لكن ذلك كـان مرهوناً بسعادة ابنتها معه ، وبخاصة إذا كان ثرياً أو عزيـزاً . وفي ذلـك قول المثل :

■ الصِهِرْ يا عِزّ ومأكِلْه .. يا ذُلّ وبَهْدِلِهْ . [72]

كما أن من الحموات من تعد الصهر بمنزلـة الابـن ، لأنـه حـاوي العرض وذلك على رأي المثل :

■ يلّلي بِدَّكْ تْصَاهْرُه .. لا تآهْرُهْ . [73]

أما إذا شعرت الحماة أنّ الأمور لا تسـير على هواهـا ، فإنّهـا لا تتوانى عن التنكّر لكل شـيء ، ويصبـح صهرهـا "سـكّة عطـل" وتجعل سيرته على كل لسان .

ويحضرني في هـذا المجـال مـا كـان يتداولـه النـاس بحـق الحمـاة أم الزوجة من الشعر :

سأل الصبيُّ أباه يوماً ، يا أبي
من كان أسعد من تزوج في الورى
فأجابه : هو آدم ، إذ لم تكن
موجودة في أيامه ، أمّ المرا.

فالحماة وإن أبدت القناعة بنصيب ابنتها ، فإنها تتسقط الفرص لتليين عريكته ، وهي لا تني تُلقّن ابنتها ما يجب عمله ، وبخاصة إذا لم يكن للزوج أهل ، و "مقطوع من شجرة" وهذا يذكرنا بالمثل الذي سبق أن أتينا على ذكره :

■ زوجِكْ على ما عوّدتيه .. وإبنِكْ على ما رَبّيتِهْ .

وإن بدا غير ذلك ، وكان الزوج عصيّاً ، فإن مسلسل الحرد[٧٤] سيأخذ أبعاده في حياة الأسرة ، وقد يؤدي ذلك إلى الطلاق. وكان من الأمثال التي توصي المرأة أخذ الحذر والحيطة من زوجها المثل القائل :

■ يا مأمنه بالرّجَال .. يا مأمْنَهْ بالميّ بالغربالْ[٧٥]

وهذا يجعلها تسلك جميع السبل المؤديّة إلى إفقار الزوج ، حتى لا يفكر بالزواج من امرأة أخرى .

وإذا كانت العلاقات بين الكنّة وحماتها ، تعبّر عن النفور وتبادل الكراهية ، فإن هذه العلاقات إن جنحت إلى المهادنة والودّ الظاهر ، فإن ذلك أشبه بهدوء ما قبل العاصفة ، وفي ذلك يقول المثل الشعبي :

■ هُوْ رِمّانِه .. قلوبْ مليانِهْ[٧٦]

الضراير :

إنّ أخشى ما تخشاه الزوجة ، أن تشاركها زوجها امرأة أخرى ، فالضرة هي المنافس الحقيقـي للمرأة ، والعداء بين الضراير[٧٧] أخطر وأكبر من العداء بين الكنة وحماتها ، فالضرّة صدمة لأنوثة المرأة ، وتهديد مستمر لحياتها الزوجية ، وهي على حدّ قول المثل الشعبي :

■ اِلْضرّهْ مُرّةْ .. ولو كانتْ آجِرّهْ. [٧٨]

لبيان كيد المرأة من ضرتها ، وأثر هـذه الضرّة في نفسيّة المرأة ، والألم الذي تتركه في حياتها .

كما أن المثل القائل :

■ لا حَمَايهْ ولا ضُرّةْ .. إلاّ سَخطَه مِنْ ٱللهْ .

دليل على العداء المستحكم بين الحماة والضراير ، نتيجة لغريزة التملّك التي تجعل المرأة تعتقد أن زوجها لها وحدها ، ولخوف الأم من أن تأخذ الكنّة ولدها منها ..

ومن جهة أخرى ، فإن وجود الضرة في نفس المنزل يثير التنافس بين الضرتين ، على الاستئثار بالزوج ، والقيام على شؤونه والتزيّن له .. وقد ينشأ عن تلك المساكنة صراع ومهاترات وممارسات كيديّة من الجانبين ، كأن تتعالى الزوجة الجديدة على ضرتها على سبيل الشماتة والإغاظة بقولها :

■ ٱللهْ يسعِدْ أيّامه .. يلّلي بيمشّي كلامْهْ . [٧٩]

فترد عليها ضرّتها بقولها :

■ راحْ سالَهْ وسَمّالَهْ .. وما صَفّى لَكْ غير ضِيق الحلالَهْ .[80]

كناية عن سبقها بالتمتع بحيوية وشباب الزوج قبلها .

بل إن ذلك الصراع ، قد يدفع الضرة للقيام بكلّ ما من شأنه الإيقاع بضرّتها ، ولو سلكت أساليب السحر والشعوذة .. فالقضيّة بينهما قضيّة تنازع بقاء . وهذا بالطبع سيجعل حياة الزوج مشحونة بالقيل والقال ، والدسّ والافتراء .. فهو في ويل إن تنازعن ، وفي جحيم إذا صدف وهدأت الحرب بينهما .. لأن الطامّة ستكون بالتأكيد عليه .

وقد صورت لنا الأمثال حال الزوج بين زوجتيه بقولها :

■ حَمْلوُه عَنْزِه .. ضَرَطْ .

■ مشحَّرْ يا زوز "زوج" البِنتينْ .

فهو الحال هذه يلعن في قرارة نفسه ساعة الإقدام على الزواج ثانية لأنّه يكون كمن :

■ قَامْ مِنْ تحْت الدلفْ لَتحِت المِزْراب .

زوجة الأب :

إذا حزم الزوج أمره وقرر الخلاص من ذلك العيّ ، بطلاق أحدى زوجتيه ، وكانت أم أولاده ، فإن المحنة ستحلّ بالأولاد . لأنهم إن بقوا مع أمهم جاعوا ، وإن تركتهم أمهم لأبيهم ضاعوا في ذلك الشتات .. لا أم تحنو عليهم ، ولا أب يعيش مشاعرهم .. وتكون زوجة أبيهم ، التي كسبت الرهان بالاستئثار بأبيهم ، سيدة الموقف .. تراها تُظهر لهم الودّ والمحبة والإيثار .. وتذيقهم مُرَّ الكأس كيداً وغبنا

ولوماً . وفي ذلك يحدثنا المثل الشعبي على لسان الأولاد :

■ مرْت الأبْ ما بِتنحبْ .. ولو حُوريّة من الجنّةْ .[٨١]

لقسوة معاملتها لهم ، ومجانبتها العدل بين أولادها وأولاد ضرتها. ويقدم لنا أدب الطفولة الشعبي صورة بالغة التأثير لما كان يعانيه الأطفال من زوجة أبيهم ، في النصّ التالي :

أنـا طـير الأخضـر	بمشـي وبتمخـتر
خـالتي دبحتـنـي	أبـي أكـل لحمـي
اخـتي الحنونـة	تلـمّ عظـامي وتبكـي[٨٢]

ومن هذه الأمثال :

■ باكلُه وبنتشُه .. وما بطعميه لخالتي مَرْت أبي "تفأ : تفيّا"[٨٣]

إشارة إلى الكراهيـة الدفينـة لزوجـة الأب مـن أولاد زوجتـه الأخرى، بسبب حلولها محل أمهـم ، ومعاملتهـا السيّئة لهـم ، ودأبهـا للإيقاع بهم تجاه أبيهم .

ومن أمثال العرب :

" آكل لحمي .. ولا أوكِلُه "

<u>بين السلفة والسلفة :</u>

إذا كانت العلاقة بين الزوجة وحماتها وبنات حميها بل وضرتها ، على ذلك النحو من التنافر والكراهية والأحقاد .. فإن العلاقة بين المرأة

وسلفتها (زوجة شقيق زوجها) لم تكن أسعد حالاً ، ولا أهدأ بالاً . بل إنّها كانت في بعض الأحيان أكثر تعقيداً من العلاقة بين الضراير ، لأن العلاقة بين السلايف تقوم على الغيرة والحسد ، والغيرة عند المرأة نار تحتاج كيانها ، فلا يهدأ لها بال ولا يغمض لها جفن ، ما لم يكُن لها ما لسلفتها ، ولو كان ذلك على حساب سعادتها . ويشتد أوار هذه النار على وجه الخصوص ، عندما يكون دخل أحد الشقيقين أو وضعه الاجتماعي أميْزُ من شقيقه .

قال الشاعر :

إصبر على صبر الحسود	فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها	إذا لم تجد ما تأكله

ولم يغفل المثل الشعبي عن هذا الجانب من حياة المرأة ، فقد قدم لنا صوراً من أغوار مشاعر المرأة نحو سلفتها ومن تلك الأمثال :

■ مَرْكَبْ الضَرَايِرْ سارْ .. ومَرْكَبْ السلايفْ إحْتَارْ . (٨٤)

لبيان عمق الأحقاد التي كانت تعتلج في صدور السلايف واستحالة الصفاء بينها وإن بدت على محبّة ووئام .

■ بِينْ السِلفِهْ والسِلفِهْ .. داءاتْ مختلِفِهْ.

وقد أرادوا بذلك الحسد والغيرة واللسّ والافتراء ، وتأويل الكلام على نحوٍ لا ينمُّ عن المحبة والوفاق .

■ دَاْ الإزلِهْ .. ولا صباحْ السِلفِهْ .

لتصوير ما يعتلج في صدور السلايف المتساكنات في دار واحدة .

وقد تنحو العلاقة بين السلايف منحى المكايدة وبرودة الأعصاب، والتظاهر بعدم المبالاة على سبيل الإغاظة وعدم الاكتراث بما تحيكه سلفتها للإيقاع بها . وفي ذلك قول المثل الشعبي :

■ **ألبي "قلبي" ثَلْجْ .. وزِمْنِي "جسمي" إسْفِنْجْ .. وعلى ضهري "ظهري" خُرْجْ .**

أما إذا كانت السلايف شقيقات ، فإن الدائرة ستكون على الحماة ، ويكون الزوجان بين حجري الرحى لا حول لهما ولا طول ، بتأثير ما تقوم به زوجة كل منهما من أفانين الغواية واللسان الحلو المبّطن بالدسّ والافتراء .. حتى يؤخذ الزوج ولا يشعر بما تعانيه أمه ، وما يتحشرج في صدرها من غصّات وما تشرق به من دموع .

مشاعر الأمومة :

لئن كان قلب الأب في الأسرة التقليدية يهفو إلى وليد ذكر ، يحمل اسمه ، ويحفظ ذكره ويُعينه على أعباء الحياة .. فإن عواطف الأمومة عند المرأة لا تقلّ عن مشاعر الأب في رغبتها بالإنجاب . أما مسألة نوع المولود ، فهذا أمر آخر ، ليس بمقدور الزوجة ، بل والزوج تقديره . فالمرأة التي تُنجب ، تُنجب البنين والبنات ، ويذكر لنا المثل الشعبي أن :

■ **البَطِنْ بْستانْ .. بِيْجِيبْ أشْكَالْ وْألْوَانْ .**

وفي جميع الأحوال فإن الأولاد لدى الوالدين بمنزلة واحدة ،

ولكنّ حنوّ الوالدين نحو أولادهما يكون أميز نحو الصغير حتى يكبر ، ونحو المريض حتى يبرأ ، ونحو الغائب حتى يعود .. وهذه سنّة الحياة .. وتكون مشاعر الأمومة نحو أصغر الأولاد بادية على نحو خاصّ ، فهو على حدّ قول المثل الشعبي :

■ غِسَالِةْ البطون .. أغلى مِنْهْ ما بيكونْ .

وهو أيضاً :

■ آخر العِنقودْ .. سُكَّرْ مَعْقُودْ .

وهذا الوليد ، مهما كان عليه من وسامة أو دمامة ، فإنّه أثير على قلب الأم ، إنّه في نظرها :

■ مِثْل النُقطةْ بالِمصحَفْ .

كدليل على النقاء والطُهر والبراءة . والأمثال الشعبية حافلة بالصور التي تدل بشكل أو بآخر على مكانة الطفل في قلب أمه . ومن ذلك :

■ ِالْقِردْ .. بِعين أمّهْ غزالْ .

■ خِنفْسِه شافت بنتها عالحيطْ .. قالتْ لها تِسْلَمي لي مِثِلْ اللّولِيّة بالحيط . (٨٦)

وتحدثنا أغاني المهد والطفولة عن هذه الناحية بكثير من الأسهاب، ومن ذلك أيضاً :

■ مثلك ما جبنا .. يا قالب الجبنا .

يا خبز بيت السلطان ، أبيض ما بيعجبنا .

■ أنت بالقلب سكّرة .. وانت للعين منظرة ..
يجمع شملي وشملك على ناموسيه مزرّرة [٨٧]

والعلاقة بين الأم وأولادها ، علاقة روحية (٨٨) ، وهي - الأم — إنّ صبّت حام غضبها ، في حالة من العصبيّة على أحد أولادها ، وغسّلته بدعوات قد تقشعرّ منها الأبدان ، فإنّ ذلك مجرّد "فش خُلق" تنفيس عن حالة من الضيق النفسيّ عارضة ، كسحابة صيف ، لا تلبث أن تزول .. فالأم في حقيقة أمرها ، لا تفرِّط بقُلامة ظفر من ولدها . ولا تقبل بأية حال من الأحوال أن يجاريها في حالتها العصبية تلك آيّاً كان .

وفي ذلك قول المثل الشعبي :

■ بِدْعي على وَلَدي .. وبَكرَهْ اللّي يقُول آمين . [٨٩]

■ ما بيبكي عالولدْ .. غير اللّي ربّاهْ .

وكيف لا ، وهي التي ، عانت ما عانت بوليدها ، من حمل وولادة ورعاية ، وسهر الليالي . فالضنى غالي ، كما يقولون ، وهذا ما يسجله المثل الشعبي

■ ما بيربي جَسَدْ .. ليفْنِي جَسدْ .

وإذا كانت المرأة في قرارة نفسها ، تفرح بوجود البنات إلى جانبها ، فلأنهنّ يُساعدنها في أعباء المنزل ، ولأنّ البنت بطبيعتها تكون أكثر حناناً ولهفة نحو أمها ، وبخاصة في حالات المرض والشيخوخه .

أمّا إذا كان الأبوان على غير وفاق في حياتهما الزوجية ،

ويتباينان في أسلوب التعامل مع الأولاد ، من ناحية تربيتهم وتوجيه سلوكهم التوجيه السويّ ، فيقول فيهما المثل :

■ الأبْ عَاشِقْ ، والأمْ غيرانهْ .. والبِنْت مَعْ اِبنْ الجيرانْ حيرانهْ .

■ " الآباءْ يأكلون الحُصرُمْ ، والأبناءْ يضرسونْ .

المرأة وجاراتها :

أما علاقة المرأة بجاراتها ، فقد اهتمّت الأمثال الشعبية برسم الأطر التي ينبغي أن تسود بين الجيران ، فعلاقات الجوار ، امتداد طبيعي للروابط الأسريّة . وقد تفوقها في بعض الأحيان . وفي ذلك قول المثل الشعبي :

■ جارك القريب .. ولا أخوك البعيد .

ومن أمثال العرب في ذلك :

" رُب بعيد .. أقرب من قريب"

"أخوكَ من واساكَ بنَشَبْ ، لا من واساكَ بنَسَبْ" .

وقد فرضت العلاقات الاجتماعية على الجوار نوعاً من الارتباط والتكامل تولّد عنه المشاركة المصيرية التي فرضتها الجيرة .

فالجار أقرب الناس لجاره ، يُشاركه في أفراحه ، ويُسعفه في أحزانه ، ويتحمّل عنه جانباً كبيراً من مسؤولية العلاقات الاجتماعية ، في المناسبات التي تستدعي ذلك . وهو حريص على سمعة جاره وعرضه

وشرفه .. وفي ذلك قول المثل الشعبي أيضاً :

■ جارَكْ مِثِلْ أخاك .. إن ما شافْ وجهكْ شافْ قَفَاك . (٩٠)

قال الشاعر :

وأغضُ طرفي ، ما بدت جارتي حتى يواري جارتي مأواها .

فضلاً عن هذا كلّه ، فإنّ التعاليم الدينية السمحة ، تحثّ في جميع المناسبات على احترام الجار والإحسان إليه .

قال تعالى في محكم كتابه : (٩١)

﴿والجار ذي القربى والجار الجُنُب والصاحب بالجَنب﴾ .

وعن رسول الله ﷺ :

(ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنّه ميورثّه).

والمرأة في الأسرة التقليدية ، كثيرة الفراغ ، فهي شديدة الميل إلى الاجتماع من الأخريات ، وبخاصّة الجيران ، لتبدّد الساعات الطوال من فراغها .. ورأي جاراتها فيما تطبخ أو تلبس وتتزيّن ، له دور كبير في حياتها . ومهما بلغت المرأة من الغنى والترف وأسباب الرفاه ، فإنها لا غنى لها عن جاراتها ، وفي ذلك يقول المثل الشعبي :

■ لَوْ كَانَتِ اِسْوارتي وَزْنَهْ .. مَالِي عنْ جَارِتي غِنِيّهْ . (٩٢)

■ لَوْلاكِي يَا جَارتِي .. لَطِّتْ مَرَارتي . (٩٣)

■ يَلْلِي مَا بِيغَار مِنْ جَارْتُه .. بِتعطِه مَرْاْتُهْ .

لكنّ استرسال المرأة في إفصاحها عن مكنون خصوصياتها الأسرية إلى جارتها ، وتناولها أخبار الأخريات من جيران ومعارف وصحب بالثرثرة والتعليق والتأويل ، سيوقد نار الحسد والغيرة ويفجّر الأسباب المؤدية إلى التشاحن والبغضاء وسوء الظن ، وقد نجم عن ذلك مجموعة من الأمثال الشعبية نذكر منها :

■ فُوتِةْ الجارْ لِعندْ الجارْ .. أوّلها مَذَلّة وآخِرها مِعيّارْ. (٩٤)

■ يا جَارِي إنتْ بْحَالَكْ .. وأنا بْحَالي .

■ إن شفتِ (رأيت) جارةْ سبّتْ جارتها .. مالِكْ عِندها سِتْ الجيرانْ . (٩٥)

■ مْخَالَطة النّاسْ بِيتعِبْ الرّاسْ .. تِرْكهُم أونسْ .

■ الحَسَد بالجيرانْ .. والبِغضْ بالْقرَايبْ .

ومجانبة لما قد ينجم عن الاختلاط الزائد مع الجارات ، من اشكالات قد تصل إلى الرجال ، وخوفاً أن تصل العلاقة بين الجيران إلى طريق مسدود ، ينصح المثل الشعبي الجار بقوله :

■ إنْ جارْ عَليكْ جَارَكْ .. حَوّلْ بابْ دَارَكْ .

ولا بُدّ من القول ، إن مضامين الأمثال التي أتينا على الاستشهاد

بها ، لا تنمّ في جميع الأحوال عن طبيعـة العلاقـة بـين الجـوار ، فأسـاس العلاقات بين الجوار ، كما ذكرنا ، يقوم على التعـاون والإيثـار والمحبـة والنجدة عند الشدائد وتبادل المنافع .. إلى آخر ما هنالك مـن المضـامين الإنسانية .

الحواشي

١ – انظر كتابنا : درر الكلام في أمثال أهل الشام طـ (١) ص : (٢١) مكتبة لبنان ١٩٩٤ .

٢ – قصّة الزواج : إدوار وسترمارك ، ت : عبـد المنعم الريـادي ص:(٣٧) مكتبة النهضة المصرية .

٣ – انظر كتابنا : يا شام ، في التراث الشعبي الدمشقي ط (١) ص (٢٤٦) مطبعة ابن خلدون دمشق ١٩٨٤ .

٤ – القمـل : ضـرب من حشـرات الرأس والبـدن ، تنعشـه قلّة النظافـة، والصيبان : بيوض القمل .

٥ – قصة الزواج . ص : (٥٠–٥١) .

٦ – الشعب المصري في أمثاله العاميّة : ابراهيم شـعلان . ص : (٩٢) الهيئـة المصرية للكتاب ١٩٧٢ .

٧ – عن سعيد بن أبـي الهـلال مرسـلاً ، الجامع الصغير للسـيوطي الرقـم : (٣٣٦٦) .

٨ – سورة النحل . الآية : (٥٨) .

٩ – المرطبـات : كالبوظة بـالحليب ، والشـرابات .. توزّع علـى المهنئـين والمباركين في فصل الصيف . أما الكراوية المطحونـة والمغليّة مـع دقيـق الرزّ والمزيّنة بالقلوبات من لوز وفستق حلبي وجوز وبنـدق وصنوبـر .. فتقدم في فصل الشتاء .

١٠ – سفرة الخلاص : مائدة تُقام لولادة المرأة بالسلامة .

١١ - الجمان في الأمثال : جمانه طه . ص : (٣٠) .

١٢ - يا شام . ص : (١٩-٢٠)

١٣ - انظر كتابنا حمامات دمشق . ط (٢) ص : (٣٦٥) مطبعة ابن خلدون. دمشق ١٩٨٦ .

١٤ - الملاءة : لباس المرأة في الأسرة التقليدية حتى أواسط القرن العشرين ، وذلك في الأماكن العامة.

ويتألف من قطعتين . الأولى تُسمّى : الخزّاطة ، وهي ما يعرف اليوم بالتنّورة . والقطعة الثانية : تُعرف باسم : (الفَجّة) . وهي غطاء الرأس فوق المنديل الأسود الذي يُسدل على الوجه . وتغطي الفجّة الرأس والكتفين حتى الخصر . فإن كانت المرأة مسنّة تكون ربطة الفجّة من خلف الرأس تحت المنديل . وإن كانت صبيّة تكون ربطة الفجّة فوق المنديل ، وذيل (أسفل) الفجّة يكون سائباً في لباس الصبايا . ومربوطاً من خلف إلى أمام عند المسنّات . وفي بعض الحالات تكون ملاءة المسنّات بلون أبيض ، وتعرف بالإيزار .

١٥ - حكاية البيت الشامي الكبير : ط (١) ص : (١٠-١٤) مطبعة الأديب ، دمشق ١٩٧٢ .

١٦ - عاشها كلها : ط(١) ص (١٥) دار الأندلس بيروت ١٩٦٩ .

١٧ - المِلّة : المعتقد ، أرادوا بها : البيئة والشريحة الاجتماعية .

١٨ - خود : خذ .

١٩ - دنّ : وحدة إيقاع . مين : من ، ياخد : يتزوج . إنّه : القن : وهو الخمّ ، أرادوا الشريحة الاجتماعية .

٢٠ - خندأ : أندأ ، محور .

٢١ - الفايز : الربا . يجوا : يلدون .

٢٢ - كناية عن قرب نهاية المرء .

٢٣ - يعنّل : يظّل ، يبقى .

٢٤ - يا شام ص : (١٨٩) .

٢٥ - كناية عن الفقر .

٢٦ - دوّر : ابحث ، كناية عن الجمال .

٢٧ - الجلال : البردعة ، أرادوا بذلك المظهر .

٢٨ - ضهر : ظهر ، أرادوا : أحقيّة ابن العم بالزواج من ابنة عمّه .

٢٩ - يا شام : ص : (٢٢٧) .

٣٠ - دأن : ذقن ، لحية .

٣١ - يا شام : ص (٢١٥) .

٣٢ - الأسرة في المثل الشعبي الفلسطيني ، عبد الكريم الحشاش . ص:(٩١).

٣٣ - شعلان : ص : (٩٤) .

٣٤ - أوّص : أطلق الرصاص ، إإطاع : اقطع .

٣٥ - بيفوت : يدخل ، كناية عن الخيلاء .

٣٦ - دبور : زنبور . الشحرور : طائر غرد أسود اللون من فصيلة الشحروريات ، يُربّى لحسن تغريده .

٣٧ - كانوا يوقدون النار بالموقد ، ويطلون القدر بالتراب المجبول بالماء ، ثم يضعونه على أثافيّ الموقد (الكانون) .. وتشرع المرأة بتسريع اشتعال الحطب بالنفخ بالفم ، أو بالمنفاخ .

٣٨ - انظر كتابنا : فنون وصناعات دمشقية . (١) ص : (٢١٢) مطبوعات وزارة الثقافة السورية ١٩٥٨ .

٣٩ - مأطوع : مقطوع ، انظر الحاشية : (٣٤)

والعقير والعقبر .

٤٠ – ريحة : رائحة . فمه . كناية عن البخل والتقتير .

٤١ – إلفت ، كِسَر الخبز المشرّبة بالمرق ، المراة : المرق .

٤٢ – جراذين : جرذان ، أرادوا البخل والشحّ .

٤٣ – الأطاط : الحر .

٤٤ – تطروء : تطرق ، صوت تهطال المطر ، أرادوا : الخير والبذخ .

٤٥ – شملان ، ص : (١١٤) .

٤٦ – إلي : لي ، أريد . تنتعه : تتولاّه الأرود : القردة .

٤٧ – أرادوا الاستكانة والاستسلام . انظر الحاشية :(٤) .

٤٨ – فحمه : شدة سواد البشرة ، كناية عن معاناة الزوجة من فساد طباع الزوج .

٤٩ – أرادوا الهرم والشيخوخة .

٥٠ – عرق : غصن ، والآس نبات حراجي توضع أغصانه على القبور .

٥١ – مأمّره : شهية : مشمّرة : عالية الهمّة .

٥٢ – مين : مَنْ . يبوسه : يُقبّله .

٥٣ – أرادوا بالطير : الزوج ، والمثل دعـوة إلى المرأة للالتفـات إلى مهامّهـا المنزلية وواجباتها الزوجية .

٥٤ – الفضايح : الفضائح ، بمعنى : الجهل أيام العزوبية .

٥٥ – زيتها : زيت سراجها ، عنوا بذلك : الوحدة القاتلة .

٥٦ – تطلع لبرّه : اطلاع الناس عليها .

٥٧ – يلّلي بدّه : من أراد .

٥٨ – شو : ما الذي . المرّ : الصعب .

٥٩ – عنوا الاستكانة والخضوع .

٦٠ – المِيّ : الماء .

٦١ – معلّاه ، مطلّاه : معلّقة مطلّقة .

٦٢ – الفول : كناية عن أبخس الأثمان .

٦٣ – أفا : ظاهر الكف . الوش : الوجه.

٦٤ – يا شام : ص : (١٥٤) .

٦٥ – شعلان : ص : (١١٥) .

٦٦ – يا شام ص : (٢٤٩) .

٦٧ – انظر كتابنا حكايات دمشقيّة ص : (١٨٥) ط (١) مطبعة ابن خلدون. دمشق ١٩٨٧ .

٦٨ – ورأ : ورق .

٦٩ – خمّ : فسد ، تلف وتفسّخ .

٧٠ – عأربة : عقربة .

٧١ – تأعِدني : تجعلني أعيش . مرت : زوجة .

٧٢ – يا : إمّا .

٧٣ – تآهره : تقاهره ، تزعجه وتعاديه .

٧٤ – مغادرة بيت الزوجية .

٧٥ – أرادوا التحذير بعدم الاطمئنان للرجل .

٧٦ – مو : ليست . مليانة : ممتلئة .

٧٧ – شعلان : ص : (١١٥) .

٧٨ – قطعة من الفخار المشويّ .

٧٩ – يمشّي كلامه : يجعله مسموعاً .

٨٠ – ساقه وسمّاقه : كناية عن الشيخوخة .

٨١ – مرت : زوجة . ما بتنحب : غير محبوبة .

٨٢ – بتمخطر : الخايل .

٨٣ – نتأ : تقيأ .

٨٤ – أرادوا : التغلب على الإشكالات التي قد تعصف بالعلاقات الإنسانية.

٨٥ – دأ : زحن ، سحق . الإرفة : قشر شجر من الناريّات له رائحة عطرة وطعم حاد مائل إلى الحلاوة . وهو من الأوقيات (البهارات) .

٨٦ – لولية : حبّة اللؤلؤ .

٨٧ – الجبنا : قالب الجبن .

٨٨ – شعلان ص : (١٢٨ – ١٣٠) .

٨٩ – اللّي : من .

٩٠ – شاف : رأى عن غير قصد .

٩١ – سورة النساء الآية : (٣٤٦) واللفظ في سورة الأنفال : الآية (٤٨).

٩٢ – اوقيّة : ٢٠٠ غرام .

٩٣٤ – طقّت : انفجرت ، كناية عن الوحدة القاتلة .

٩٤ – فوتة : دخول ، زيارة .

٩٥ – ست : سيدة .

■■■

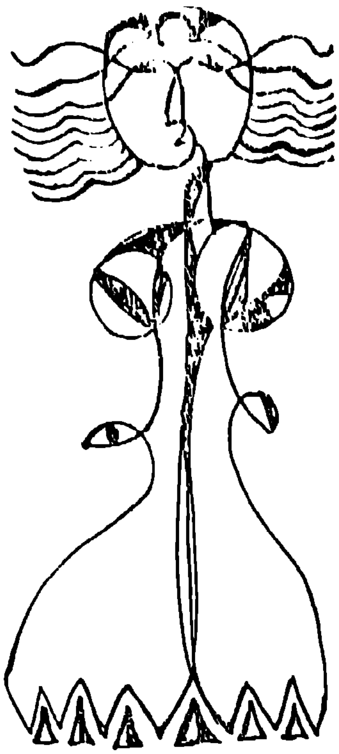

الطفولة في التراث الشعبي

الطفولة.. في التراث الشعبي

١-الأم العربية والطفولة في صدر الإسلام:

تعدُّ طفولة المرء حلقة أساسية من عُمر الإنسان، وهذه الطفولة سرعان ما تكتسب المعرفة، وتنتقل من البسيط إلى المركب، ثم إلى وعي الزمن، واختزان التجربة، واستنباط القوانين التي تنتظم الكون.(١)

وكانت الأم العربية في صدر الإسلام تدرك أهمية هذه المرحلة من حياة الطفل، وتردد لطفلها من الأقوال والأشعار "يوم كانت اللغة المحكية فصحى" ما يُرهف حسه، ويجعله في مستقبله فتيً كريماً أبياً شهماً.. كانت تترفع عن خدش سمعه بالألفاظ الدنيّة، وتجعل سلواه حديث الأبطال، وكرم الكرماء..

وقد سلكت في ذلك مسالك عدة منها: المدح أو القدح، والعتاب والاستعطاف والاعتذار والتعريض.. وحفظ لنا تراثنا الأدبي طائفة من أغاني المهد المعروفة باسم "المرقّصات"، لاعتمادها على الحركة الإيقاعية أثناء الأداء، نذكر منها على سبيل المثال:

كانت حليمة السعدية مرضعة النبي (ﷺ) لا تدعه يذهب إلى مكان بعيد عنها، فغفلت عنه يوماً في الظهيرة، فخرجت تطلبه، فوجدته مع أخته من الرضاعة، وهي الشيماء، وكانت تغنّي له بقولها(٢):

هذا أخ لم تلده أمّي وليس من نسل أبي وعمّي

فأنمه اللهم فيما تُنمي

وكانت هند بنت عُتبة ترقّص ابنها معاوية بقولها(٣):

إن بُنيّ مُعْرِقٌ كريم ... مُحَبَّبٌ في أهله حليم
ليس بفحّاش ولا لئيم ... ولا بطخرور ولا سئيم
صخر بني فهر به زعيم ... لا يُخلف الظنّ ولا يَخيم

وكانت الأعرابيات يلجأن أثناء ترقيص أطفالهن إلى ردّ كيد المفتريات عليهن.. وقد تحدثن في أشعارهن المعدّة لترقيص أطفالهن، عن آمالهن وأحلامهن.. ومن ذلك حكاية أعرابيّتين ضرتين، كان لإحداهما ولد ذكر وللثانية بنت، فأخذت الأولى تعيّر الثانية بقولها:

الحمد لله الحميد العالي ... أنقذني اليوم من الجوالي
من كل شهواءَ كِشَنٍّ بالي ... لا ترفع الضيم عن العيالِ

فردّت عليها الثانية بقولها:

وما عليّ أن تكون جارية ... تكنس بيتي وتردُّ العارية
تمشط رأسي وتكون الفالية ... وترفع الساقط من خمارية
حتى إذا ما بلغت ثمانية ... رديتها ببُرْدَةٍ يمانية
زوجتها مروان أو معاوية ... أصهار صدق ومهور غالية

ومن طريف ما يذكر، أن مروان ومعاوية سمعا رجزها فأعجبا به وأكرماها، إذ وجد كل منهما أنها خليقة بأن لا يكذّب ظنّها!!..

٢-اشكال أدب الأطفال:

قبل البحث في الطفولة والتراث الشعبي في مطالع القرن العشرين، لا بد من التمييز بين قسمين رئيسين من أدب الأطفال:

قسم يُبدعه الكبار للصغار، وقسم آخر ينشئه الأطفال لأنفسهم، بعد أن

يـستخففوا، إلى حـد ما، من الاعتماد على الكبار، وتنمو وتتضح لديهم ملكة التعـبير عما يجيش في صدورهم، وما يعتلج في مخيلتهم.. والبون شاسع وكبير بـين ما يغنّى للأطفال من هنهنات وترانيم وترقيص وأغان للمهد.. وما يبدعه الأطفال أنفسهم.

أ-ما يقدمه الكبار للصغار

١-اكتساب الطفولة المبكرة:

ثمـة علاقـة بين ما يقدمه الكبار للأطفال، وطاقة الطفل على الاستيعاب وتقـبل خـياله لذلك، واستجابته للمحاكاة مع ما يقدم له، سواء بالتمثيل أو التنغيم أو الإيقاع.

وإذا كانت الطفولة المبكرة، تعتمد في اكتساب قدرة التعبير، لدى الطفل، على عالم الكبار، فإن غالب ما صدر عن كتّاب أدب الأطفال نثراً وشعراً، كماً وكـيفاً.. لا يكاد يفي بالأغراض الأولية التي تتطلبها الطفولة.. لافتقاده أبجدية الـتعامل مع فكر الطفل وعقله وخياله، بل ومنطقه، وعدم قدرة تلك النصوص عـلى أنسَـنة الأشـياء والحيوان وفق منظور الطفل وتصوره.. ولأن من هذه النصـوص ما ينزع فيه الكاتب، أو الشاعر إلى تصوير ما أراده هو في طفولته، بعقله الواعي كرجل، فهو في ذلك غير قادر على التلبس بلبوس الطفل وفكره.. فـيكون عمله أشبه بقالب جاهز، على الطفل أن يتقوقع فيه، وأن يكون على مقاس ذلك القالب..

٢-أصالة ما صدر عن الأمهات:

وعـلى ذلـك فـإن الأصيل مما قدمه الكبار للطفولة، كان ما صدر من مأثورات عن الأمهات والأخوات، صدوراً عفوياً يتسم بالمرونة، وينهض بالنَّظم واللحن والأداء بشكل يتواكب مع متطلبات الطفولة.. وقد تمثل ذلك في أغاني المهـد والطفولة، تلك الأغاني التي واكبت مراحل حياة الطفل، وتعايشت مع

مقتضيات الطفولة، من مكاغات ونطق وحبو ومشي، ولهمت بالترفيه عن الطفل وإثارة فكره وخياله..

وكان من هذه المأثورات ما يشدنا إلى عالم الطفولة وهيام الأمومة بها وتقديسها.. فقد تفجّرت عاطفة الأمومة همهمات وتماليل وأغان ومكاغات نبت بها الأم عواطفها ومشاعرها نحو غريزة استمرار الحياة.. فكانت أدباً مفعماً بالصدق والسمو.

٣ـ الاهتمام بأغاني المهد والطفولة:

إذا لم تحظ هذه المأثورات بالعناية الكافية على صعيد الوطن العربي، في الوقت الرّاهن، فإن من الضرورة بمكان، الاهتمام بهذا الجانب من تراثنا الشعبي، بتدوين أغاني المهد والطفولة وتصنيفها، وتبادل نصوصها بين الأقطار العربية.. والإفادة منها في إبداع ما يماثلها بما يتفق ومقتضيات الحياة المعاصرة..

وعندما أتحدث عن هَيام الأمومة بالطفولة، فإنني أنقل للقارئ العربي صورة وعيتها وعشتها أو عايشتها في العقد الرابع من القرن العشرين، في وقت كانت فيه المرأة عبئاً اقتصادياً على الأسرة، وكان همّ الرجل أن يجعل من المرأة مفرخة للأولاد، وبخاصة الذكور منه

وقد توارثت الأمهات الاغاني وتناقلتها جيلاً بعد جيل طوال فترة من الزمن، خضعت خلالها للتهذيب والتطويع والأقلمة، بحيث كان لهذه الأغاني أن تعايش والحالة النفسية التي تعيشها الأم، عندما تغني لابنها، أو ابنتها.

٤ـ مضامين أغاني المهد والطفولة:

وإذا تباينت نصوص هذه الأغاني بين أمهات شريحة اجتماعية وشريحة أخرى.. بل بين والدتين من بيئة وشريحة واحدة، لسبب من الأسباب.. فإنها في جميع الأحوال، تدور في فلك تتبلور أركانه في معان أساسية منها(٥):

-أن ينام الطفل نوماً هنياً.

-تخويف الطفل بالكائنات المرعبة، إذا لم ينم.

-الوعد بتقديم مكافأة للطفل على سلوكه الحسن.

-إبـــداء الإعجـــاب والاعتزاز بالطفل، والتغني بمحاسنة، وإسباغ النعوت والأوصـــاف المحبـــبة، عـــلى الطفل، من جاه وسؤدد وسلطان وغنى للذَكَر.. والزوج الجيد والعزّ في بيت الزوجية بالنسبة للنبت.

مدلولات هذه الأغاني:

لـــو حاولنا استجلاء دلالات هذه الأغاني، فإن من الممكن القول أنها تعدُّ مكاشـــفة نفسية للأم، وهي تقدم لنا إضاءة للحقبة التي ذاعت وانتشرت فيها، وتكشف لنا جوانب من وجدان المجتمع النفسي والاجتماعي، كما أنها تتيح لنا الـــتعرف على ألوان تفكير الناس وإحساساتهم وأسلوبهم في الحب والكراهية.. وتـــدل دلالة صادقة على الظروف المعيشية التي كانت تحياها المرأة كزوجة، في ظـــل الأطر التي كانت تحكم علاقات أفراد الأسرة التقليدية، حتى أواخر العقد الـــرابع من القرن العشرين.. كما تُقدِّم لنا (هذه الأغاني) إضاءة على الأوضاع الـــتي كانـــت تؤطر عادات الناس وأذواقهم وسلوكهم، بل وجملة الميزات التي تشكل شخصيتهم الاجتماعية، في أبعادها الحقيقية.

فضـــلاً عـــن هـــذا كلـــه، فإن هذه الأغاني تتسم بالبساطة في الانفعال، والســـذاجة في التعـــبير، والضآلة في العبارة والفكرة.. وفوق هذا وهذا، فإنها تهـــدف "فـــيما تهدف إليه"، إلى ترقيص الطفل "ملاعبته" في يقظته، وهدهدته لينام.. وتزويده ببعض المعارف والمعاني التي تتناسب مع وعيه وإدراكه.

٦-مشاعر الأمومة في أغاني المهد والطفولة:

يمكن أن نستخلص من هذه الأغاني جملة من المعاني، تتمثل في حب الوليد، ذكـــراً كـــان أم أنثى، وبثه الحنان الذي لا يعادلـــه شيء في الدنيا، لأنه السند المرتقب، والأمل المرتجى، على تحمل نوائب الدهر، التي قد تلمّ بالأم.

فالأم عندما تغني لوليدها، فإن هذا الغناء يصدر عن غريزة الأمومة، وهي في ذلـــك الغـــناء، تجنّد عواطفها وتبوح بمشاعرها المفرحة، وآلامها، وأحزانها وهمومها وأشجانها وإحباطاتها جرّاء معاناتها مع حماتها وبنات حميها(٦).. الأمر الـــذي يجعـــل هذه الأغاني تضجّ بالمعاني الحزينة واللوعة المريرة حيناً، والفرحة والابتسامة المشرقة أحياناً أخرى.

٧-حرص الزوجة على الإنجاب:

وكان من المآسي التي تعيشها الزوجة تأخر إنجابها، فـ**﴿المال والبنون زينة الحـــياة الدنـــيا﴾**(٧). وسعادة الزوج لا توازيها سعادة عندما يعلم أن زوجه حامل، وبخاصة الحمل الأول.

والمرأة التي يتأخر إنجابها أو العاقر، تكون حياتها الزوجية غير مستقرة.. إنها تعـــيش في قلق دائم، وفي حيرة من أمرها، حتى لكأن تبعة ذلك في يدها، وهي الـــتي تضنّ بذلك على زوجها. وهي في أبسط الحالات تكون عرضة لتقلبات مزاج الزوج، فقد يتزوج عليها، ويأتيها بضرة ينصرف اهتمامه إليها.. وبالتالي تكـــون حـــياة هذه الزوجة على كفّ عفريت كما يقولون، وفي مهب الريح، والمثل الشعبي القائل:

- ***(المرا بلا ولاد.. متل الخيمة بلا وتاد).***

يفســـر خوف الزوجة التي لا تنجب، من المستقبل، فالولد ضمان استمرار الحـــياة الزوجـــية في الأسرة التقليدية، وهو الملاذ الذي تأوي إليه، وإلا كانت حياتها بلا جذور (وشرشها على البلاط) كما يقولون(٨).

آ-احتفاء الأسرة بالمولود:

والاحتفاء بالمولود في الأسرة التقليدية لم يكن مقصوراً على الأم، فقد كان يشاركها في ذلك الأب والجد والجدة، بل والأخوات أيضاً. (فالضنى غالٍ) كما يقولـــون. وما من أب أو أم، إلا ويحلم أن يرى حفيده بأم عينه يملأ عليه الدنيا

أنساً وحبوراً. ويعبر عن ذلك المثل الشعبي القائل:

■ *(مو أغلى من الولد.. غير ولد الولد).*

فضلاً عن هذا، فقد حفظت لنا ذاكرتنا الشعبية جملة من العادات والتقاليد التي تعايش نمو الطفل، نذكر منها عادات الاحتفاء بظهور أسنان الطفل، والخطوة الأولى التي يخطوها الطفل، في محاولته المشي.. وأول قصّ لأظافره.. وتبديل أسنانه اللبنية بالأسنان الدائمة، وختانه...

- فظهور أسنان الطفل أمر يستدعي الابتهاج في حياة الأسرة، ومن مظاهر هذا الابتهاج طهو (السليقة) وسكبها في الأطباق وتزيينها بالسكاكر وجوز الهند المبشور وحب الرمان، وكذلك الجوز واللوز والفستق الحلبي والصنوبر والزبيب.. ويُهدى من أطباق هذه السليقة الأهل والجيران والأصدقاء والمعارف، ويعود كل من هذه الأطباق مع هدية للطفل كمظهر من مظاهر المشاركة بهذه الفرحة.

- وإذا خطا الطفل أوّل خطوة، تدعو الأسرة، أهل الزوج والزوجة، إلى وليمة معاليق مشويّة أو مطهوّة، احتفاءاً بهذه المناسبة.

- وتكاد تكون فرحة الأبوين والجدّين لا توصف، عندما يبدأ الطفل بالنطق.. أما إذا تأخّر نطقه أو كان لسانه ثقيلاً في النطق، فإنهم يعمدون إلى إسقائه من عرق الطنجرة، حتى تنفكّ عقدة لسانه (٩).

وإذا تأخّر مشي الطفل، فإنّهم يربطون إبهاميّ قدمي الطفل بخيط أو نحوه، ويأخذه شقيقه أو أحد أقاربه من اليافعين إلى مسجد الحيّ، وقت صلاة ظهر يوم جمعة، وينتظر أول خارج من المسجد بعد الصلاة، فيناوله مقصّاً يقصّ به ذلك الخيط، لاعتقادهم أن ذلك يعجّل في مشي الطفل.

ب- حبّهم العقب الذكر:

وحب الأسرة للعقب الذكر تقليد درج عليه العرب منذ جاهليتهم، كانوا

يعتزّون بالمولود الذكر، وجاء هذا الاعتزاز والتمايز بين الجنسين نتيجة للظروف الاجتماعيّة التي عاشها العرب. فقد كانوا يحتفلون لثلاث:

أمّـــا الأولى فلولادة فرس، والثانية لنبوغ شاعر، وأما الثالثة فلولادة مولود ذكـــر(١٠). وقـــد أُعطيت هذه الأهميّة للمولود الذكر، في ذلك الحين، للأمل المـــرجوّ منه كحامٍ للعشيرة ومُدافع عن قِيَمها، ولاعتبار الذكر فتى العشيرة في السلم والحرب والعُسر واليُسر.

وعندما كان الأبوان في الأسرة التقليديّة يفكران في زواج ابنهما، فإنّ أول مـــا يـــدور في خَلَدهما، أن يكون لـــه عقب ذكر، يحمل اسم الأسرة، ويعين والـــده عـــلى تحمّل مشاق الحياة وأعبائها... وكم من رجل أقسم لئن أنجبت زوجه أنثى ليطلقنها (١١).

وهـــذا يفسّـــر حـــرص الأم عـــلى إنجاب وليد ذكر يحميها من غوائل المســـتقبل... حتّى لكأن المسؤولية تُلقى على الأطفال، ابتداء من وجودهم في الأرحام وحتى الأجل... فهم أداة دفاع عن الأم صغاراً، وعون للأسرة كباراً.. وهـــم الفداء للوطن رجالاً، عندما يستدعي الأمر ذلك. فالمولود الذكر والحال هـــذه، ضمان لاستمرار الحياة الزوجية في الأسرة التقليدية، والأم عندما تغنّي لولـــيدها تصـــدر عـــن مشـــاعر صادقة وعن انفعالات داخلية ومعاناة نفسية متداخلة (١٢).

ج- وماذا عن البنت :

وعـــندما تتعلق الأم بالبنت، فإن ذلك يرتبط بما تعانيه من عنت وظلم، قد يـــلحق بولـــيدها مســـتقبلاً، ولأن البنت أكثر عاطفة وحناناً وتذكّراً لأمّها في كـــبرها.. فالأمّ عندما تهزّ مهد طفلتها تعيش واقعها المرير، من خلال ما تردّده من أغانٍ.. وهي شديدة التعلّق بوليدها، وترى في هذا التعلّق إسهاماً في إنقاذها مـــن محنتها، على أمل أن تكون ابنتها عوناً لها في دنياها عند الكِبر. ولذلك فإن

أغـاني المهد الخاصة بالبنات، تطفح بالذكرى الأليمة التي تعتلج في صدر الأم، لسوء طالعها في حياتها الزوجية ومرارة الحياة التي تعيشها، يوم كانت المرأة عبئاً اقتصادياً على الأسرة..

◆ أغاني الأطفال ومراثي الأحزان

إنّ المسـحة الحزيـنة في هـذه الأغـاني، وإن صدرت عن معاناة الأم، ترتـبط بجـذور تعود إلى رواسب وظّفتها الأم للتنفيس عن كربتها.. ويذهب الكعبي (١٢) إلى التمييز بين أغاني الأطفال التي تقدمها الأمهات، ومراثي الحزن الخاصة بالمناسبات الحزينة، فالمرأة أنشأت مراثي الحزن، ثم طوّعتها واستخدمتها في مناسبات أخرى، بحسب مقتضيات الحال.. فهي عندما تختلي بنفسها، وتهيّج قسـوة المعاناة أحاسيسها، تمسك بمهد وليدها تهدهد وترنّم أو تهنهن لها لتنام.. إنما تغنّي واقعها..

لقد جعلت من مناسبة هزّ سرير وليدها المفرحة مرثاة لتظلّ على صلة مع واقعها المرير.

■ *نامي يا بنتي نامي .*

وان شاء الله ما بتنضامي.

عين الله ما نامت.

نامي يا بنتي نامي.

• • • •

شو هالالوب يلّلي إلهن يا بنتي.

إسيت وما لانت..

راح عللّي راح يا بنتي .

وحاج تنّضوا الجراح يا ميمتي.

نامي يا بنتي نامي .

وان شاء الله ما بتضامي.

وعيونك بالمنا نامت.

اوالله نامت بنتي. (١٣).

• • •

وتيسيراً للدراسة يمكن أن نميّز بين أربعة أنماط من المأثورات التي يقدمها الكبار للطفولة (الأمهات، الأخوات، الجدّات) وهي:

أغاني هنهنات أو ترانيم الميلاد، أغاني المهد، أغاني الطفولة، أغاني ملاعبة الصغار التعليمية.

أ. أغاني الميلاد

فالأم، من خلال فرحة الميلاد، تبثّ وليدها فرحتها به، ومشاعرها نحوه بما يُسبُغهُ عليها من بهجة واطمئنان. فهو على حدّ قول المثل الشعبي:

■ *(خرَطَة الخرّاط.. والبِ مات..) (١٤)*

إنه أثير قلبها وفرحها، ومستقرّها وأُنسها، وليس له مثيل، وأين منه أنداده، بل أنّى للنساء أن يلدن مثله. مهما طال بهنّ الصبر... فقد أعيتهن الحِيَلْ رغم كل ما بذلن للقابلات من وعود ونقود.

■ *امتلك ما جابوا — لو الحسنو وشانوا*

لو برطلوا الدايات ما جابوا

وهو فريد زمانه، ودرّة عصره، وأين من بياض بشرته الناصع قالب الجبن، بل أين من خدّيه المورّدين خبز بيت السلطان الشهي.

■ *متلك ما جبنا. — يا قالب الجبنا..*

■ *يا خبز بيت السلطان — أبيض ما بيعجبنا(١٥)*

وهـي تجعـل بضاضة جسمه، أشبه بقضيب من (الزّمرد)، وترى حلاوته أحلى من السكّر، وكيف لا وهو باب استقرارها، ورباط سعادتها الزوجية:

■ انـت سـعدي ومسـعدي وانـت قضـيب زمـرّدي
وانـت للعـين مـنظرة.. وانـت بالقلـب سـكّرةْ
يجمـع شمـلي وشملـك. عـلى ناموسـيّة مـزرّرة

ويمثل هذه العاطفة البريئة العبارات، البسيطة الأسلوب، السهلة التناول، الرقيقة المعاني، تناجي الأم طفلتها:

■ إنت ستّي وستّ الكل .
من نادك بربط ومن نادك بحلّ .
من نادك بطعمي الجوعان. .
ومن نادك بكسي العريان .
ومن نادك بنادي عيش " خبز" يا جوعان!!.

■ إنت ستّي وستّ بَيتي .
كبرتي وانتشيتي .
كان طولك طول الأمحة .
صار صوتك ملاة بيتي (١٦).

تُـرى أيُّ صـداق ذلك الذي ستلبّي به تلك المتطلبات، وتواجه به تلك الإشـكلات، وتعقـد الصـفقات!!.. لا شيء أكثر من الأحلام الورديّة التي تدغـدغ مخيّلتها، ولا شيء أيضاً سوى التمنّي، في أن يكون لابنتها ما حُرمت مـنه، مـن آمال عقدتها يوم خطبوها، قبل زفها إلى عرسها.. وتلك الأحلام والامنـيات هـي الـتي تجعل الأم تتخيّل ابنتها هيفاء ميساء تضجّ الأنوثة في أوصـالها، وتسـبي العقول بلحظها.. إلى أن يستقر خيال الأم في أن يكون ابن

السلطان عريساً لابنتها التي لا تزال في مهدها!!..

■ هـــيّ بـــنتي يـــا دلّـــي ويلهـــا عـــريس مـــستني لي
بـــزوزها لابـــن الســـلطان ويلاعـــبها يـــا دلّـــي..

ثم تســـتدرك الأم تبعات الزواج من ابن السلطان فتخاف أن يفرّق ذلك الزواج بينهما ويبعد ابنتها عنها فتقول:

■ انـــــت حبيـــــبة مـــــا بـــــزوّزك غريـــــبة
بـــــزوزك عـــــندي لـــــتكوني أريـــــبة (١٧)

بدائي المهد

إذا تجاوزنـــا فرحة الميلاد، كنت ترى الأم تناجي وليدها راجية لـــه نوماً هنـــيّاً في (هنهـــنات) وأغانٍ هادئة خفيفة أليفة إلى القلب، أنيسة إلى الأذن، فتضـــمّه في حجـــرها أو تمد ساقيها وتضع على مشطي قدميها وسادة صغيرة تُوسّـــده علـــيها، أو تُوسّده في مهده أو أرجوحته، وتشرع في الغناء وهي تهزّه هزات خفيفة رتيبة تحاكي الإيقاع الذي ينتظم ما تقول.

وقـــد جـــرت عـــلى لسان الأمهات، جيلاً إثر جيل، أغنيات وهنهنات اســـتطاعت أن تبقى ماثلة في أذهان بعض الأمهات حتى يومنا هذا ونحن على أعـــتاب القرن الحادي والعشرين.. وفي كل مرة كانت الأم تزيد على مفردات الأغنية أو تعمل بها تشذيباً وتقويماً وفقاً لمعطيات الحياة وظروف الأسرة.

وتتشـــابه هـــذه الأغاني لدى شعوب العالم، في أنها مهما تكن اللغة التي يخاطب بها الطفل، ومهما يكن الإيقاع الذي تسير عليه.. من حيث أنها توجه الحديث إلى الطفل راجية لـــه نوماً هادئاً، أو معدّدة صفاته الجميلة التي تعتدّ بها الأم ولا ترى لها مثيلاً بل لا ترضى لها بديلاً أيّاً كان البديل (١٨)

■ أولله يـــــا الله ني راح الحـــــج وخـــــلاني
راح الحـــج عـــلى بـــلاده يـــا ربّـــي لا تنـــساني

• • • • • •

حطيــــته بالمـــــرجوحة وخفــت عليــه مــن الشــوحة
هــزّي لـــه يــا صبّوحة بلكـــي عــلى صــوتك بيـــنام

حطّيـــته بالعلـــيّة وخفــت عليــه مــن الحــيّة
هــزي لـــه يـــا ناجـــية بلكـــي عـــلى صـــوتك بيـــنام

... ...

هـــزي لــــه يـــا بدريـــة ســــتي زينـــب ورقـــيّة
ســـتي زينـــب بالحضـــرة لابســـــة جـــبّة خضـــرة

بلكــي على صوتك بينام (١٩)

جـ-أغاني الطفولة

تعتمد الطفولة في مرحلة ما قبل التعبير على عالم الكبار، في تلقينها النطق وتدريــبها على الحبو والمشي.. ويكتسب الطفل خلالها من المفردات، ما يربط طفولته بالعلاقات الإنسانية الأوليّة، وبالحاجات الضرورية القريبة التناول.

وقــد تركــت الأمومــة في هذه المرحلة بصمات واضحة في تعلّم الطفل اللفــظ، عن طريق المقاطع البسيطة التي تردّدها الأم أمام طفلها، بتكرار ترافقه الحــركة الرشيقة الحانية، والابتسامة المشرقة المصحوبة بالنغم والإيقاع في كثير مــن الأحــيان.. فترى الطفل مشرئبّ الرأس مفتّح الأذنين.. باذلاً الجهد كل الجهــد، بكل خليّة من خلايا جسمه، من أجل إخراج حرف من بين شفتيه.. لتعمّ الفرحة أوصال الأم.. ويأخذ بها الابتهاج كل مأخذ..

وهكذا تكاغي الأم وليدها (٢٠):

نكِــغّ نكـــغ نِكْغُولِـــك وإيــش مــا طلــبتي بجيــبولك
وان طلــبتي خــلخال دهب مـــن الصـــاغه بجيـــبولك

■ تكّي تكّي تكّمين ــــ ولأبسني سترتين..
سترة بيضا صفرا ــــ وجارية بحصفرتين
تكّي تكّي بيا بيت ــــ لمن صفتك ندهت
ولمن قالوا لي بيت ــــ حطّيت راسي ونمت (٢١)

وفي الصباح.. ليس أبدع ولا أجمل من صباح الطفولة الملائكي.. فما أن تنبلج تباشير الفجر الأولى، وتشرع خيوط الضياء في تبديد الغسق.. إلاّ والطفل يتمطّى.. ويفترّ ثغره عن أصوات رقيقة عذبة هي بدايات النطق.. أما الأم فحانية عليه في إشراقة تذوب حبّاً، وكل خلية في جسمها تبتهل إلى الله أن يكلأ الطفل بعنايته ويحرسه برعايته.. وينطلق لسانها:

■ صباح الخير يا بُكّرْ ــــ يا ايمّع على سكّر
ويلّلي ما بيتصبّح بوشّك ــــ يكون نهاره معكّر
صباح الخير خِيرة ــــ يخلّي لي بنتي هالزغيرة
صباح الخير كان.. ــــ ما يخلى منّك المكان
وإن خلي منّك المكان ــــ تكوني عاملة سيران (٢٢)

٩- ملاعبة الكبار للصغار التعليمية

إذا أخذ الطفل يعي بعض الأشياء التي حوله، بأشكالها ومسمياتها وألوانها وبعض وظائفها القريبة من إدراكه.. تعمد الأسرة (الجدّة والأم والأخوات) إلى غرس بعض المعارف البسيطة، التي توسّع أفق معرفته، وتنمّي مداركه.. كأن تأخذ يد الطفل وتفتح كفّه، وتشرع تقصّ عليه قصة العصفور الذي يتوضّأ وما حلّ به.. وفي كل مقولة تمسح باطن كفّ الطفل:

يا باح يا باح ــــ يا عرء التفاح .
إجا العصفور ليتوضّا ــــ لآ إبريء فضّة .

وهنا تطوي إصبعاً من أصابع كف الطفل مع كل مقولة:

هي كمشته — *وهي دبحته*

وهي طبخته — *وهي أكلته*

وهي قالت: ويلك الحصيني بالطاقة

وعندما تنتهي من ثني الإصبع الأخيرة من الكف، تأخذ بدغدغة الطفل ببطء يتسارع من الكف إلى رقبة الطفل وهي تقول:

■ *دبّ الليلة.. دب الليلة.. دب الليلة..*

ولدى الوصول إلى رقبة الطفل تكركره بسرعة قائلة:

■ *كركر.. كركركر...*

فيضحك الطفل بسرور بالغ (٢٣).

وقد تُتبع الأم الكركرة بإقصوصة "ستي داية" التي تقول:

■ *كانت ستي داية* — *طبخت لي كوساية..*

حطيتها عالسبحرة — *إجا العصفور نارها*

إلت له: كش — *آلّ لي يسلم لي هالوش (٢٤)*

وتُشبه لعبه خنصر خناصر لعبة يا باح يا باح، في تعريف الطفل على أصابع يده، وفيها يمسك اللاعب بكفّ الطفل، ويقوم بثني الإصبع عند التعريف بها :

■ *خنصر خناصر: للخنصر.*

عمي أبو ناصر: للبنصر.

عيشة الطويلة: للإصبع الوسطى.

لحاسة اللبن: للسبّابة.

قالة القمل: للإمام (٢٥).

ومـــن الأغـــاني الـــتي تعلّم الطفل حب النظام، والتزام التقيّد به في إطار الجماعة، لعبة: "طيمشة ومنيمشة" ويشارك بها عدد من الأطفال ذكوراً وإناثاً، فيجلسون في مقابلة من تلاعبهم "الأم مثلا"، يمدّون أكفّهم على سويّة واحدة، ويكون باطن الكف نحو الأسفل، فتُجرى القرعة بينهم على كفّ البدء باللعب بقولها وهي تنتقل بالعدد من كف إلى أخرى عند كل مقولة:

حكــــرة، بكرة، قال لي ربي، عدي العشرة.. واحد، اثنان.. عشرة. وبعد الكـــفّ الـــتي يـــتوقف عندها العدّ، تعمد إلى قرص ظاهر الكف بلطف، عند الانتقال من كفّ إلى أخرى عند كل مقولة:

■ *طيمشة ومنيمشة.*

بعتني ستّي عيشة.

لاشتري باصل.

وقع الكوز وانكسر.

حلفت معلّمتي.

لتعلّقني بالشجر.

والشجر نتوط نتوط .

خبّي إيدك يا عروس .

يمّ الحلقّ والدّبوس .

وعندما تصل إلى مقولة: خبّي ايدك، تسحب الطفلة أو الطفل، التي يصل إلـــيها العدّ يدها، إلى وراء ظهرها، فتقول لها الأم: شمميني ايدك. فتمد الطفلة يدهـــا إليها، فتشمّها وتقول لها: أوه.. مسك وعنبر. ومن ثم تخرج الطفلة من اللعب.

ثم تُعاد اللعبة، وتخرج بنت أخرى، وأخرى حتى النهاية (٢٦).

١٠. مشاركة الطفل اللعب

إذا قطـــع الطفـــل أعواماً من عمره، تحاول الأسرة ملاعبته مع أشقّائه، أو أنداده، وذلك بأسلوب يعتمد على تنشيط الذاكرة، واختبار انتباهه، وتركيزه. ومن ذلك لعبة: هدّى الحمام. ولعبة: وزّ.

• تقـــوم لعبة هدّي الحمام على إجلاس الأطفال المشاركين في مقابلة من يلاعبهم. الأب أو الأخ الأكبر. فيمدّ الأب كفّيه ويضعهما أمامه على الأرض، ويقول: هدّى الحمام.

ويفعل الأطفال مثله، فيضعون أكفّهم على الأرض وهم يقولون:

■ *هدّى الحمام.*

فيرفـــع الأب كفّيه إلى أعلى ويقول: طار الحمام فيفعل الأطفال مثل فعله، ويرددون قوله.

ويجـــري ذلك مراراً، والأطفال يفعلون مثله، ويكررون قوله، فإذا غالطهم وقال:

■ *طار الحمّام.*

يصيح أحد الأطفال قائلاً الحمّام ما بيطير.. الحمّام ما بيطير. نحنا منتغسّل فيه.

فيصفّق لـــه الجميع فرحين.

وتكرّر اللعبة مراراً، طالما كان الأطفال مسرورون منها.

• أمـــا لعـــبة: وزّ، فيشارك فيها عدد من الأطفال، يجلسون قبالة أحدهم وأكفّهـــم ممـــدودة أمامه، وهو يمسك بشحمتي أذنيه. كل شحمة بيد، ويلفظ عـــبارة " وزّ" ويمدّها، وهو ينحني إلى الأمام أو إلى اليمين أو اليسار.. والأيدي

مبسوطة أمامه.. والأطفال يتابعون تحرّكه وإمساكه بشحمتي أذنيه بيقظة تامّة.. فإذا حاول إفلات يده عن إحدى أذنيه، أو كلاهما. فإن الأطفال يعمدون إلى سحب أكفهم من أمامه بسرعة، تحسّباً من أن تصيب يد أحدهم ضربة من اليد التي أفلتت الأذن.. فإذا أصاب إحدى أيدي اللاعبين، يخرج اللاعب الذي أصابت يده الضربة من اللعب، وتعاد الكرّة.. وإذا أخطأ يصبح كأحد اللاعبين، ويحل محلّه الذي نجا من الضرب بسحب يده.

ثانياً – ما يبدعه الأطفال أنفسهم

١- ألعاب الطفولة المبكرة وبدايات الانطلاق:

ما إن يتخففّ الطفل من الاعتماد على الكبار في تنمية مداركه، وتنمو وتتفتح لديّه ملكة التعبير عمّا يجيش في صدره، وما يعتلج في مخيّلته... حتى يشعر أن أركان المنزل وباحته أخذت تضيق به، فيخرج إلى الزقاق حيث يمكنه أن يترجم عوالمه التي يعيشها في عقله الباطن، إلى حقائق يمارسها باللعب مع أقرانه وأندداه. وتغلب على هذه الألعاب البراءة والعفوية، وتجنّب العنف وإلحاق الأذى بالآخرين.

ومن تلك الألعاب ما تكون مشتركة بين الصبيان والبنات، وقد تكون قاصرة على الصبيان أو البنات، وقد تأخذ طابع التمثيل في بعض الأحيان. وقد يمارسها الطفل منفرداً، أو يشاركه بها أطفال آخرون.

٢- دلالات ما يُبدعه الأطفال:

وفي جميع الأحوال فإن ما يبدعه الأطفال، إن دل على شيء، فإنّما يدل على خصب خيال عالم الطفولة المبكرة، وسعة أفقها، وقدرتها على توظيف ما اكتسبته من الكبار، بإطار من الكلمة المحكية والتشكيل واللحن والإيقاع، في إهاب عوالم تتجسد في مُخيِّلتهم وتُترجم على لسانهم، وعلى مسرح عالمهم،

كأنها حقيقة لا زيف فيها ولا تكلّف. وهذه أمور لا يدرك كنهها وأبعادها إلا مـــن عاش طفولته على طبيعتها، بعيداً عن القوالب الجاهزة، التي تؤطّر سلوك الأطفال وتحجّم عفويتهم!!.. وتحدّ من تفاعلهم من محيطهم.

٧- لعب البنات والصبيان :

وخروج الأطفال إلى الزقاق على نحو ما ذكرنا، يكاد يكون مقصوراً على الصـــبيان.. أمـــا البـــنات، فمن النادر أن يخرجن لممارسة اللعب في الزقاق أو الحارة، سواء أكان هذا اللعب مع الصبية أم مع بعضهنّ فقط..

لذا فإنّ مشاركة الصبيان البنات في اللعب مقصورة ضمن أسوار المترل. أو في دارة الخنوجة كما سنرى، حتّى لكأنّ البنت تشعر تلقائياً أنها أنثى منذ نعومة أظفارهـــا.. وهكـــذا فإن ما كان للصبْية ممارسته في الزقاق ليس بالضرورة أن يكون من حق البنت. كما وأن الألعاب التي تشارك فيها البنات الصبيان تسمح طبيعـــتها بهذه المشاركة.. وهي على العموم، تتّسم بالنعومة، وتبعد عن العنف والغلظـــة أو الجهد.. وإذا صدف وخرجت البنت للعب في الزقاق، فإنهم كانوا يقولون عنها أنها: زقاقيّة. بمعنى قليلة التربية والحياء.. سواء أكان ذلك للّعب مع الصبيان أم مع أندادها من البنات.

ومـــن الألعـــاب التي يشارك فيها البنات والصبيان: لعبة الخطابين، ولعبة الشوحة الخطافة. ويأخذ شكل كل من اللعبتين طابع التمثيل.

لعبة الخطابين

وفـــيها يصـــطف الصغار صبياناً وبناتاً في صفّين متقابلين، صف يمثل أهل العـــروس، وآخر يقابله يمثل أهل العريس. وتُختار من بين البنات طفلة يوضع على رأسها منديل أبيض، كطرحة العروس، وتقف هذه الطفلة في مقدمة جماعة العروس.

ويقـــوم بالأداء كل من الجانبين على شكل جوقة متكاملة. وعندما يتكلم

جماعة العريس يتقدمون خطوات إلى أمام جماعة العروس الذين يتراجعون بنفس عدد الخطوات. ويحدث مثل ذلك لدى ردّ جماعة العروس، حتى الكلام بين كرّ وفرّ. ويكون غناؤهم ونداؤهم على غاية من اللطف والنعومة. و دون أية عنف في التعامل. ويبدأ الحوار من أهل العريس:

■ - ***يصبّحكم بالخير يآل العميرة العمري .***

جايين نخطب بنتكم يآل العميرة العمري.

ويرد أهل العروس:

-ما منعطيكم ياها إلا بالف وميّة .

وحتى تحطوا نادها جوّات الصينية .

ويحـاول أهـل العريس أخذ العروس، ولكن أهلها يمنعونهم، فيعاود أهل العريس القول:

-يا الله عطونا ياها، يآل العميرة العمري .

هيّ عروستنا، يآل العميرة العمري .

فيردّ أهل العروس:

-ما منعطيكم ياها، إلا بالف وميّة .

وحتى تحطوا نادها، جوات الصينيّة .

فيرد أهل العريس:

-منزّل على طرها، ومنكسّر بوابها .

هيّ عروستنا، وعروستنا هيّه .

يآل العميرة العمري (٢٧)

كأنها حقيقة لا زيف فيها ولا تكلّف. وهذه أمور لا يدرك كنهها وأبعادها إلا مسن عاش طفولته على طبيعتها، بعيداً عن القوالب الجاهزة، التي تؤطّر سلوك الأطفال وتحجّم عفويتهم!!.. وتحدّ من تفاعلهم من محيطهم.

٣. لعب البنات والصبيان:

وخروج الأطفال إلى الزقاق على نحو ما ذكرنا، يكاد يكون مقصوراً على الصـــبيان.. أمـــا البـــنات، فمن النادر أن يخرجن لممارسة اللعب في الزقاق أو الحارة، سواء أكان هذا اللعب مع الصبية أم مع بعضهنّ فقط..

لذا فإنّ مشاركة الصبيان البنات في اللعب مقصورة ضمن أسوار المترل. أو في دارة الحوحة كما سنرى، حتّى لكأنّ البنت تشعر تلقائياً أنها أنثى منذ نعومة أظفارهـــا.. وهكـــذا فإن ما كان للصبيْة ممارسته في الزقاق ليس بالضرورة أن يكون من حق البنت. كما وأن الألعاب التي تشارك فيها البنات الصبيان تسمح طبيعـــتها بهذه المشاركة.. وهي على العموم، تتّسم بالنعومة، وتبعد عن العنف والغلظـــة أو الجهد.. وإذا صدف وخرجت البنت للعب في الزقاق، فإنهم كانوا يقولون عنها أنها: زقاقيّة. بمعنى قليلة التربية والحياء.. سواء أكان ذلك للّعب مع الصبيان أم مع أندادها من البنات.

ومـــن الألعـــاب التي يشارك فيها البنات والصبيان: لعبة الخطابين، ولعبة الشوحة الخطافة. ويأخذ شكل كل من اللعبتين طابع التمثيل.

لعبة الخطابين

وفـــيها يصـــطف الصغار صبياناً وبناتاً في صفّين متقابلين، صف يمثل أهل العـــروس، وآخر يقابله يمثل أهل العريس. وتُختار من بين البنات طفلة يوضع على رأسها منديل أبيض، كطرحة العروس، وتقف هذه الطفلة في مقدمة جماعة العروس.

ويقـــوم بالأداء كل من الجانبين على شكل جوقة متكاملة. وعندما يتكلم

جماعة العريس يتقدمون خطوات إلى أمام جماعة العروس الذين يتراجعون بنفس عدد الخطوات.. ويحدث مثل ذلك لدى ردّ جماعة العروس. حتى لكأنهم بين كرّ وفرّ، ويكون تجاذبهم وتدافعهم على غاية من اللطف والنعومة.. و دون أية عنفة في التعامل. ويبدأ الحوار من أهل العريس:

■ - يصبّحكم بالخير يآل العميرة العمري .

جايين نخطب بنتكم يآل العميرة العمري.

ويرد أهل العروس:

-ما منعطيكم ياها إلا بالف وميّة .

وحتى تحطوا نادها جوّات الصينية .

ويحـــاول أهـــل العريس أخذ العروس، ولكن أهلها يمنعونهم، فيعاود أهل العريس القول:

-يا الله عطونا ياها، يآل العميرة العمري .

هيّ عروستنا، يآل العميرة العمري .

فيردّ أهل العروس:

-ما منعطيكم ياها، إلا بالف وميّة .

وحتى تحطوا نادها، جوات الصينيّة .

فيرد أهل العريس:

-منتزل على دُرها، ومنكسّر بوابها .

هيّ عروستنا، وعروستنا هيّه .

يآل العميرة العمري (٢٧)

ويتجاذب الطرفان العروس، وتكون الغلبة في النهاية لأهل العريس، ثم تُعاد الكرّة، ويأخذ كل جانب مكان الجانب الآخر.

لعبة الشوحة الخطافة

يشـــارك في هـــذه اللعبة عدد من الأطفال صبياناً وبناتاً، يصطفّون وراء بعضـــهم، وكـــل واحـــد أو واحدة منهم يمسك بثياب الطفل الذي أمامه من خلـــف. وتقف في المقدمة فتاة تمثل دور الأم، على حين تأخذ فتاة أخرى دور الشوحة. وتكون في مقابلة الأم، فتفرد يديها على شكل جناحيّ الشوحة وهي تصيح:

■ *أنا الشوحة الخطّافة .*

فتحامي الأم بيديها على أطفالها، بمدّهما إلى الخلف، وتحاول الهرب بهم من غدر الشوحة، وهي تصيح:

-أنا امّهم بلّمهم.

وتكرر المحاولة، ويجري خلال ذلك الحوار التالي بين كرٍّ وفرّ:

-أنا الشوحة الخطّافة.

_أنا امهم بلّمهم.

_ما باخذ إلاّ المدلل .

-ما بعطيكي إلاّ الجردون .

-باخده وبحرق دمّه .

-خلّي المدلل لأمّه .

-هون ضايع لي نيرة.

-ان شاء الله ما تلاقيها .

-بدّي اشنش حطباتي .

-بتاخدي لي وليداتي(٢٨) .

وفي هـــذه الـــلحظة تغافل الشوحة الأم، وتخطف أحد الأطفال، وتكرر العملـــية حتى تستطيع الشوحة خطف جميع الأطفال.. ثم تعاود الكرّة، بعد أن يجري التبادل بين الشوحة والأم في الأدوار.

٣- ألعاب البنات

تتســـم ألعاب البنات في سنّ الطفولة بالنعومة والهدوء ونزعة التملك، مع انعـــدام العنف في التعامل بين اللاعبات. كما أن المساحة التي يجري فيها اللعب أصـــغر من المساحة التي يشغلها الصبيان في اللعب. وملابس البنات أقلّ تعرّضاً للاتســـاخ بســـبب اللعـــب، بالقياس لملابس الصبيان.. ومن هذه الألعاب، ما يقتصـــر على لاعبة (فتاة) واحدة، وما تشارك فيها أكثر من لاعبة، وقد تكون تلك المشاركة على سبيل الفرجة لا أكثر.

وممارسة البنات اللعب قد يكون في ركن من غرفة من غرف المترل أو في باحة الدار.

لعب البنت في غرفة بالمنزل

يتميّز اللعب في الغرفة بالهدوء، وإطلاق الخيال، حتى لكأنّ كل ما يجول في عقل الطفلة من أفكار، وما يحيط بها من كائنات.. مخلوقات تشاركها مشاعرها وأحاسيسها وتفكيرها، وهي تتحدث إليهم ويتحدثون إليها ويشاركونها الرأي، ويتقبلون أوامر الطفلة ونواهيها.

فقـــد تمارس الطفلة اللعب مع ألعابها، فتراها تصفّ هذه الألعاب أمامها، فتطعم هذه وترضّع تلك أو تسقيها، وقد تحاكي هذه اللعبة وتزجر الأخرى، إذا لم تســـتجب لـــلجلوس أمامهـــا، وقد يجنح بها الخيال إلى التحدث مع اللّعب

والتعامل معهن وكأنهن صديقات أو رفيقات لها..

أو أنها، وفي مرحلة أكبر من العمر، قد تأخذ دور "الخوجة" في التعامل مع الأطفـــال الآخرين من أخوتها وأندادها، فتراهم ينصاعون إليها بهدوء وسكينة وقـــاعة، والفرح باد عليهم في كل حركة، أو استجابة لما تطلب إليهم، وعن طيـــب خاطر. فهي تأمر وتنهي وتطلب من كل منهم، أن يقوم بكذا أو يمتنع عـــن هذا أو ذاك.. وتعطي الأذن لهذا بالاستراحة، أو تحرمه وتعاقبه بالوقوف ووجهه إلى الحائط.. تماماً كما تفعل الخوجة في دارها.

لعب البنت في باحة المنزل

أمـــا اللعب في باحة المنـــزل، فهو أكثر حيوية وفاعلية جسمانية، ويعتمد عـــلى الـــيقظة، والســـرعة في الأداء، والدقّة في بعض الأحيان، وهو في غالب الأحـــيان يعتمد على مشاركة عدد من اللاعبات. ومن ذلك على سبيل المثال: **لعبة خشب شابي والدقّة، والزحطة.**

• لعبة خشب شابي

تجـــتمع اللاعبات على شكل حلقة مغلقة، ويجري اختيار إحداهن لإجراء القرعة. فتتوسط، هذه اللاعبة المختارة المجموعة، وتقول وهي تشير إلى لاعبة في كل مقولة:

•بـــف بـــف، خشب شابي، قومي العبي، عسكر مسكر، دقّ السكّر، خالوطة، مالوطة، هون ضلّت محطوطة.

فـــالتي يقف عندها الكلام أو العدّ، يكون عليها الدور، فتنهزم من أمامها بقـــيّة اللاعبات وتركض وراءهن لإمساك أيّ منهم أو لمسها.. فيتراكضن هرباً مـــنها، وللحيلولة دون لمسها لأيّ منهن، فإذا أوشكت لمس إحداهن، تلجأ إلى وضـــع يدها على خشب إحدى النوافذ أو الأبواب أو الأشجار، فتنجو منها.. وإذا استطاعت من كان عليها الدور، لمس أيّ لاعبة من اللاعبات أو إمساكها،

يُصبح على هذه اللاعبة الدور.. وعليها محاولة لمس لاعبة أخرى أو إمساكها.

• **لعبة الدقّة**

وهـــي عـــلى نمط لعبة خشب شابي، إلاّ أن اللاعبات لا يلجأن إلى لمس جســـم خشبيّ للتخلّص من الإمساك أو اللمس.. وإنما يقع الدور على اللاعبة الملموســـة. وإذا تضــايقت إحدى اللاعبات من اللاعبة التي عليها الدور. فإنها تصيح بكلمة: "حيز" (أي وقت مستقطع).

وقد يلعبنها بأن تقف اللاعبة على قدم واحدة، وتقفز وراء بقية اللاعبات، فيهربن منها وهن يتضاحكن، ويردّدون بصوت عالٍ:

يـــا جاجـــة إنِّـــك إنِّـــك *والبيضـــة احســـن منّك* (٢٩)

والجدير بالذكر أنّ هذه اللعبة قد يمارسها الصبية أيضاً.

• **لعبة الزحطة**

وتشـــترك بها لاعبتان على الأغلب، فيرسم على الأرض في باحة المنـــزل بالطباشير بيوت كما في الشكل:

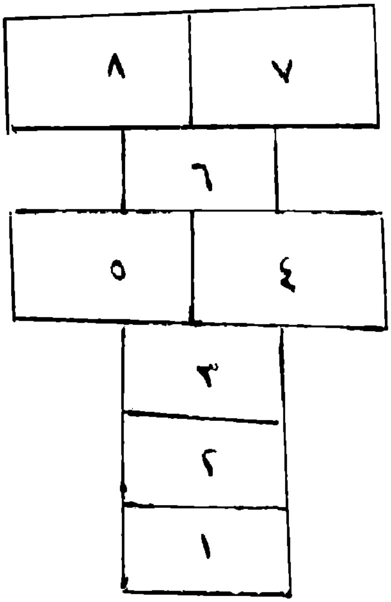

تضع اللاعبة على الأرض خارج الرســـم قطعـــة من البلاط، أو قشرة بـــرتقال سميكة، وتدفعها (تزحطها) بـــباطن قدمهـــا الوحشي، إلى وسط البيـــت الأول، وتقفز إلى وسط ذلك البيـــت عـــلى قدم واحدة بحيث لا تلامس قدمها حدود الرسم. ثم تدفع القشـــرة المذكـــورة، أو قطعة البلاط بـــباطن قدمهـــا الوحشي إلى البيت الثاني، وتقفز كما في البيت الأول..

فإن استطاعت احتياز جميع البيوت، يحقّ لها تملّك (حجز) أي بيت تريد، وغالباً ما يكون البيت الأول.. وتستمرّ في اللعب حتى تخطئ "تقطم" بوضع قدمها الثانية على الأرض أو الدوس على حدود أحد البيوت، وفي هذه الحال يأتي دور اللاعبة الأخرى التي تحاول النجاح بامتلاك البيت الثاني، حتى لا تقطع عليها اللاعبة الأخرى الطريق إذا احتلّته.

ألعاب الصبيان

الألعاب التي يتفرّد بها الصبيان، على جانب أكبر من الاحتكاك ببعضهم، ويمكن أن يبعد ميدانها عن المنزل.. وتعتمد على الجهد العضلي من ركض وقفز وقرفصاء، فضلاً عن التفكير والتخطيط واليقظة للفوز.. ويمارسها الأطفال بكثير من المحبة، والتعاون والإيثار والتسامح. كما أن الفوز، لا يخلق إشكالات وحساسيات بين اللاعبين.. وللخبرة والممارسة دور في ذلك الفوز.. ومن هذه الألعاب ما يعتمد أيضاً على لاعب واحد، يعقبه لاعب آخر وآخر.. ومنها ما يشارك فيها أكثر من لاعب. ومن ذلك: **طاء طاء طاقية ، ولعبة الطمّيمة:**

***طاء طاء طاقيّة**

وفيها يتحلّق الأطفال، وهم يجلسون القرفصاء على شكل دائرة، باستثناء أحدهم الذي يمسك بيده طاقيّة (عرقيّة أو قبّعة) يركض بها، حول محيط الدائرة الخارجي وهو يصيح:

-طاء طاء طائية!!.

محاولاً وضع تلك الطاقيّة تحت أحد اللاعبين خلسة فينبّهه الآخرون بقولهم:

-رنّ رن.. يا جرس.

فيعدِل اللاعب عن محاولته، ويتابع ركضه وهو يصيح بقوله:

-الثعلب فات.. فات.

نورة عليه الجميع.
سبعاً لله سبع لمات.

ويستمر في الركض، وهو يقول قوله، والآخرون يجيبون، حتى تتاح له فرصة وضع الطاقية تحت أحدهم، ويسرع في ركضه. وما إن يشعر به اللاعب الذي وضعت تحته الطاقية، حتى يلحق به محاولاً إمساكه، فإن استطاع الإمساك به، لحا بريشه وعاد إلى القرفصاء في مكانه، وعاود اللاعب الراكض محاولته كرّة أخرى.. وإن أخفق اللاعب الذي وضعت تحته الطاقية في الإمساك برفيقه قبل أن يجلس في مكانه.. أصبح الدور عليه في الركض والمحاولة (٣٠).

• لعبة الطمّيمة

يتّفق الأطفال على مكان للانطلاق، ويقع الدور على أحدهم بعد إجراء القرعة على نحو ما ذكرنا، فيطمّ وجهه على جدار في ذلك المكان، بحيث لا يرى ما حوله، ويعدّون: واحد، اثنان، ثلاثة. وخلال ذلك يختلفون بسرعة إلى أنحاء الحارة أو الزّقاق للاختباء، حسب ما يختار كل واحد منهم. ويصيح المطموم قائلاً: فتّح؟. ويمدها بحيث يسمع الجميع. وهو بذلك النداء يريد أخذ إشارة بدء البحث عنهم. وما إن يتمّ اختباء الجميع حتى يردّ عليه أحدهم بقوله: فتّح.

عندها يشرع المطموم بالبحث، وما إن يغادر المطموم مكان الطمّ، حتى ينسلّ اللاعبون المختبئون إلى مكان الطمّ، وكلما وصل واحد منهم، يضع يده على ذلك المكان، ويعدُّ بصوت عالٍ إلى الثلاثة، وعندما يقترب اللاعب الذي عليه الدور (المطموم) من مكان أحد المختبئين يصيح الذين نجوا لتحذيره بقولهم:

يا سمتي خبو زُمَّل

فيفرّ من مكانه، فإن امسك به، اصبح عليه الدور بالطمّ، وإن عاد الجميع إلى مكان الطمّ، دون لمس أو مَسك أحدهم، لعاد الكرّة.. وقد يكون الطمّ مربوط عصابة على عين أحدهم بحيث لا يرى شيئاً، ومن لم يطرح بمحاولة الإمساك أو اللّمس، لأيّ من اللاعبين، وهم يتراكضون ويتضاحكون ويهزؤون ويكسرون بسل ويمرحون من حوله. على غرار لعبة البنات لي: يا حاجة إنك.. إنك.

ب- ألعاب ما بعد الطفولة المبكرة

إذا تجاوز الأطفال سنّ الطفولة المبكّرة تتغيّر نوعية ألعابهم وطبيعتها، فتصبح أكثر عنفاً وعمقاً في مضامينها، وتحتاج إلى مزيد من المرونة واللياقة الجسمية والملائمة مع اللعبة، بل والتفكير في كل خطوة من خطواتها، ومن هذه الألعاب:

• لعبة الكعاب

الكعب عظم في عقب قدم الخروف، يأتون بعدد منها، ويصفّوها فوق بعضها، ويطلق على ذلك الصف اسم "القلعة". يأخذ اللاعب كعباً ويقذفه بفَركِه بين إصبعيّ السبّابة والإبهام، ويكون ذلك من مكان متّفق عليه بين اللاعبين، فإن أصاب القلعة، يربح كعاب القلعة، وإن فشل خسر كعبه الذي رماه. ثم يحاول لاعب ثانٍ وثالث.. فإذا أصاب أحدهم القلعة ربح الكعاب المرميّة وكعاب القلعة أيضاً.

• لعبة آبال الكعاب

وفيها يصفّ اللاعبون عدداً من الكعاب المذكورة إلى جانب بعضها، ويتبارون من مكان متّفق عليه بمقابلة تلك الكعاب المصفوفة، فيمسك اللاعب

الكعب، ويقذفه بفركه بين إصبعيّ السبّابة والإبهام وهو يصيح:

-*ابالك قم، درعالسي قم، إن جيب آبال بعيش.*

فــإن أتى الكعب على وجهه المسمى "آبال" يربح الكعاب المصفوفة، وإن جــاء الكعــب على قفاه المسمى "هيش" أو على بطنه المسمى "جور" أو على ظهــره، فــإن اللاعــب يخسر الكعب. ويحاول لاعب ثانٍ وثالث.. حتى يأتي الكعب على وجهه، فيربح اللاعب الكعاب المرميّة والكعاب المصفوفة جميعها.

• لعبة الدحل

وتعــرف أيضاً بلعبة "الكُلّ"، والدحل كرات من الحجر النحيت، منها ما هو بحجم البندقة أو أكبر قليلاً، وقد تكون من الزجاج النقي وتسمى "آزوز". ويطلــق على الدحلة التي يخصّها اللاعب لنفسه للّعب بها، اسم "الطحموش". إذا كانــت من الحجر النحيت، أما إذا كانت من الزجاج فتُسمى: "البلّورة". كمــا يطلقون على "الطحموش والبلّورة" اسم "الراس" لأنه رأس اللعب لكل لاعــب. ويشــترط أن يكون الرأس أملساً ناعماً خالياً من التنقير الذي يصيبه خــلال اللعــب، لأن ذلك التنقير يؤثر على اتجاه الرأس أثناء اللعب. وهنالك "الفســتقيّة" وهــي دحلة من الزجاج النقي أصغر حجماً من البلورة، وتتميز بخــيوط زجاجــيّة ملوّنــة مــن الداخــل. وكــان من أجود أنواع الدحل ما يُعرف بالــ (آ.ب.ث).

يجــري اللعــب في مكان ممهّد بعيداً عن المارّة ويطلق عليه اسم "المسبل" فيشكّون "يغرسون" كعباً أو أكثر لكل لاعب، وقد يكون الشكّ نقوداً كالــ: "النكلة" والقرش، كما قد يشكّون زوجاً من الدحاحل "الفساقي" لكل لاعب، وتكون المسافة بين الشكّ والآخر حوالي المتر أو حسب اتفاق اللاعبين.

يــبدأ اللعب بنقف "الطحموش أو البلورة" الرأس باتجاه الشك، إمّا بظاهر الإصــبع الوسطى، بعد لفّ السبّابة عليها، أو بوضع الرأس في باطن الكف أمام

الإمام، ومن ثمّ نقله بالإمام. ويُعرف النقف بالإصبع الوسطى بالعربي، والنقف بالإمام بالإفرنجي. وقبل بداية كل لاعب اللعب يقول لـه الآخرون تحسّباً من الفشل في اللعب:

-حلّل واسلله.

فيضعه على الأرض. ومن ثمّ يباشر اللعب. ويعرف أول اللاعبين: بالأولّي، وآخرهم: الطشّي. وهكذا فإن الأوّلي ينقف الرأس، فإن أصاب أوّل شكّ يربحه ويتوقف. ثم يباشر اللاعب الثاني، فإن أصاب شكاً ربحه وتوقف، وإذا لم يصبّ شـكّاً، توقف أيضاً. ويأتي بعده اللاعب الآخر والذي يليه، فإذا كان اللاعب الأخـير "الطشّي"، فإنّه إذا أصاب شكاً ربحه وتابع اللعب. ويظل يتابع اللعب حـتى يفشل. وبذلك يأتي دور اللاعب الأول "الأولّي"، يكون حقه في اللعب هـذه المرّة كالطشيّ. وفي حال عدم إصابته الشكّ، يتوقف ويأتي بعده اللاعب الذي يليه.. وهكذا.

والـبراعة في هـذه اللعبة تكون في الحذق في نقف الرأس. وأمثل طريقة لذلـك، ما ينطلق فيها الرأس إلى أعلى ثم ينقضّ على الشكّ فيصيبه ويستقر في مكانه بلا حراك (٣١).

• لعبة يا عَنكآبْ.. شدّ ركابْ

وفـيها قد يصل عدد المشاركين إلى ستة لاعبين، يُختار أحدهم بالقرعة، فينحني على جدار، واضعاً رأسه بين ذراعيه، وينطلق الآخرون لاعباً إثر لاعب، مـن مكان يبعد بضعة أمتار عن اللاعب المنحني على الجدار، وقبل أن يركض الواحد منهم نحو اللاعب المنحني، يجري بينهما الحوار التالي بصوت عالٍ:

■ يا عنكاب.

فيجاوبه اللاعب المنحني بقوله:

-ايه.

-هذه ركابه.

-وين ركابه؟

-عالضهرين.

وينطلق ذلك اللاعب بكلّ قوة وسرعة، فإذا وصل إلى محاذاة مؤخرة اللاعب المطلوب، ضرب الأرض بكلتا قدميه، واعتمد مؤخرة ذلك اللاعب وقفز بقوّة، فإن استطاع أن يستقرّ بين كتفي زميله يصيح بقوله:

■ *خود يا رئيس البرّ والبحرين.*

وهنا يهلل له بقية اللاعبين بقولهم:

-جعارك ومبارك وتعيش وتركبه!!..

وإن فشل ينحني على الجدار ويصبح عليه الدور. ثم يتوالى بقية اللاعبين، وكلما فشل أحدهم، عليه أن ينحني على الجدار مكان زميله ويكون دور الركب عليه(٣٢).

• *لعبة بْريْ*

ويشترك فيها لاعبان فأكثر. وبعد القرعة، يؤتى بعصا صغيرة مؤنفة الجانبين، توضع على ركيزتين، ينحني اللاعب الذي له الدور واضعاً عصا أخرى تحت العصا الأولى ويصيح استعداداً لمباشرة اللعب: بْرِىْ؟

فيقف قبالته بقيّة اللاعبين ويردّون عليه بالإيجاب: بْرِيْ(٣٣).

فيرفع اللاعب العصا التي على الركيزتين بعصاه إلى أعلى، ومن ثم يعالجها بضربة أخرى قويّة ليدفعها بعيداً، فإن استطاع اللاعبون الآخرون إمساكها، خسر دوره وحلّ محلّه لاعب آخر، وإن نجح في ضربته تُقاس المسافة التي قطعتها

العصا جرّاء ضربته الثانية، وله في هذه الحال ضربتان أخريان.

ثم يأتي اللاعب الثاني والثالث، ويمارس دوره في اللعب، على غرار اللاعب الأول، ومن يحقق من اللاعبين مسافات أكبر من ضرباته لـــه ركوب اللاعب الذي يليه فرق المسافة بينهما.

• **لعبة كيكي الطيّارة الورقية**

لعبة فرديّة يعتمد فيها اللاعب في صنع الطيّارة الورقية على ثلاثة أو أربعة عـــيدان، من القنّب، الشحينة(٣٤)، أو مثلها من القصب الرفيع، ويجعلها بطول واحـــد يـــتراوح بين (١٠٠-١٢٥) سم ويربطها من منتصفها، ثم يباعد بينها فتعطي الهيكل العام لترس الطيّارة. فإن كان الترس من ثلاثة عيدان يكون الترس سداســـياً، وإن كان الترس من أربعة عيدان يكون مثمّناً. ثم يوصل بين رؤوس تلك العيدان بخيطان من الجوت (المصيص) أو المرس فيصبح الترس وكأنه قطعة واحدة غير قابلة للتخلخل.

بعد ذلك تُكسُ المثلثات المشكّلة للترس بالورق الملّون بألوان زاهية، بحيث يكـــون كـــل مثلـــثين متقابلين بلون واحد، ويلصق على محيط الترس المذكور قصاصات رفيعة من الورق الملون. ثم يُعمد إلى ربط خيط بطول يقارب المترين بـــإحدى نقـــاط محيط الترس، وتربط على ذلك الخيط قصاصات ورقية رفيعة ملونـــة أيضاً، بحيث تغطّي الخيط بكامله. وبذلك يكتمل الترس وذيل الطيّارة، ولا يبقى لها حتى تصبح قادرة على التحليق بالجوّ، غير تركيب ميزانها الذي هو بمنزلة دفّة القيادة. وتركيب الميزان يحتاج إلى دقّة ودراية ومهارة، لأن أيّ خلل به سيجعل الطيّارة تجنح إلى اليمين أو اليسار.

ويكـــون تركيـــب الميزان من ثلاثة خيطان واحد منها في مركز الترس، والاثـــنان الآخـــران في محيطها بمقابلة الذيل، ثم تربط تلك الخيطان مع بعضها، ومـــن ثم توصـــل بخـــيط الطيران المصنوع من القطن المبروم، أما طول الخيط

المذكــور، فقد يصل إلى ٣٠٠ متر، ويلّف على قطعة من الخشب، وحتى تطير الطــيّارة يذهب بها الصبيّ إلى فسحة واسعة، أو إلى المقبرة، وقد يصعد بها إلى ســطح الــدار، وذلــك حتى لا تعلق بالأشجار أو أسلاك الكهرباء أو الأبنية المجاورة، ويجعلها تعلو في الجو بعد أن يمسك بالخيط الملفوف على قطعة الخشب المذكورة وكلّما علّت (قرّصِتْ) يمدها بالخيط أكثر..

وكــثيراً ما كان يعمد عدد من الصِبية إلى (كشّ) تحليق طائراتهم الورقية تلــك ســوية، فتبدو السماء تطير فيها مجموعة من الطيّارات. وكان كلّ منهم يتــباهى بطيّارته على أنداده. وإذا أراد أحدهـم استعادة طيّارته، يعمد إلى جذبها بالتدريج ولفٌ الخيط ثانية على قطعة الخشب حتى تنزل إلى الأرض.

ومــن الطــيارات ما كان مخصصاً للتحليق (الكشّ) في الحارات والأزقّة، وهي أصغر حجماً وأقل كلفة ولا يُستخدم في صنعها القنّب أو عيدان القصب، ولا تطير أعلى من بضعة أمتار، شريطة أن يعدو بها الصبي.

٥-الطفولة وشهر رمضان

إذا بلــغ الطفل السنة الخامسة من العمر، تبدأ الأسرة بتدريبه على الصيام، فتعوّده على الصيام للضحى، ثم درجات المئذنة (الظهيرة)، فإذا استطاع الطفل مقاومــة العطش والجوع، يستمر صيامه إلى العصر، أما إذا صام النهار بكامله، فإنّ الأسرة تحتفي به احتفاءً كبيراً، في فرحة لا تعادلها فرحة، فقد أصبح الطفل شــاباً يصوم كالرجال(٣٥)، وتبدو فرحة الجدّ أو الجدّة في شكل متميّز، فهما يجدان في صيام حفيدهما مناسبة للشفاء من آلام الظهر والمفاصل. وهكذا كانت الجــدّة (أو الجــدّ) تجثو على ركبتيها وساعديها وتحمل حفيدها على ظهرها، وتطوف به أرجاء المنــزل، وحديقته وباحته سبع دورات.

ويسمح للطفل الصائم بالخروج إلى الزقاق لتمضية بعض الوقت مع أترابه يشــاركهم فرحتهم بالصيام.. ويتأكد الأطفال من صيام بعضهم بعضاً، بفتح

الفم ومدّ اللسان، وإذا صادف واكتشف أنّ بينهم مفطراً، فإنّهم كانوا ينهالون علـيه بأبشـع النعوت. وقد حفظ لنا التراث الشعبيّ ما كان يجري على لسان الأطفال في هذا الشأن ومن ذلك:

■ *يا مفطر يا أتم.*

-يا بزّاق الدّم.

-دمك دمّ الخنزير.

-علّقوك بالجنزير.

-والجنزير ماله حلاة.

-علّقوك بالمشناة.

والمشناة ما لها خيط..

-دبّوك بنهرالبط.

-والبط ما فيه ميّ.

-دبوك ببيت الميّ(٣٦).

• *الأطفال ومسحر رمضان*

فــإذا اقترب موعد الإفطار، يأخذ الجوع والعطش من الطفل كلّ مأخذ.. إنّــه يترصّــد الدقائق والثواني بانتظار موعد الإفطار. حتى لكأنّ اللحظة منها دهــراً. كنــت ترى الطفل موزع في سمعه بين مدفع الإفطار، ومئذنة المسجد لســماع آذان المغرب، وقد وضع أمامه على مائدة الإفطار، ما تهفو إليه نفسه، ومــا يسيل لــه لعابه، من أطايب ما يحبّ من أنواع السكاكر وراحة الحلقوم والحلــوى، وأرغفة المعروك المحلّى بالسكر ومبشور جوز الهند، وأرغفة الناعم "الجرادق" المرقّشة بالدبس.

ومـا أن يحين الإفطار، ويزدرد الطفل لقيمات، حتى يكون المسحر قد بدأ طوافـه في الحـيّ، وإذا بالطفل يؤثر المسحرّ ما خصّ به نفسه من الأطايب.. ويسترضـي أهلـه للمبالغة في إكرام المسحّر، حتى يتسنّى لـه التباهي على أنـداده.. كـل ذلك حبّاً بما كان يقدّمه المسحر للأطفال من دُعابات وأغان تـروي ولع الطفولة بذلك الصوت القريب إلى نفوسهم، والأثير إلى قلوبهم.. الأمـر الذي كان يُنسي الأطفال ما عانوا من صيام نهار شاقّ وطويل عليهم، حتى لكانت أقوال المسحر بعد الإفطار هدية للأطفال على صيامهم.

ويشـدّني الحنين بخيوطه السحريّة إلى المسحر، يوم كنت أعدو مع أندادي في الثلاثينات من القرن العشرين وراء المسحر مساء كل يوم ونحن نغنّي:

■ *يا رمضان غيّرت الطبيعة*

السنّ زغير والرابة رفيعة(٣٧).

حـتى إذا تـبارد أحدنا عليه.. يكرّ علينا ونفرّ "نهرب"، ونعود فنسترضيه طالبين أن يقدّم لنا واحدة من تلك المقطوعات التي ورثها جيلنا عن الجيل الذي سـبقنا، والـتي لا تزال ماثلة في أذهاننا حتى يومنا هذا، على الرّغم من زوال المسحّر من حياتنا المعاصرة.

وإزاء إصـرارنا يسايرنا المسحر، فنتحلّق حوله جذلين، وينقر على طبلته فنصغي إليه:

■ *عالـبرغوت معـاني* *عشـعش بـأداني*
مسـكت البرغوت وفركته *حسّـبته مـات وتركـته*
عـنفط وجاب ولاد أخته *ولاد أخـته هالشـجعان*
عشـرة طـبلوا بالمطـبال *عشـرين زمّـروا بالمزمار*
هـبّوا عـليّ شـعلة نـار *رقّصـوني جديّـاني.*

حط الدعوى عالسكين   وصاح مني شو حكيت

أنا مبارح شو لقيت   وشو بحكي عالبرغوث

إجاني البرغوث جنّابي   شاوا لي كل ثيابي

ما خلّى لي خيط على خيط

استغفر الله ما بكذب   ضفضع شالت مركب

أبو بريص ريّسهم

أربع قطط وتلات فيران   الأط الأعمى سايسهم

كل سنه وأنتم (سالمين)   وأولادكم (سالمين)

أحياكم الله إلى كل عام(٣٨)

ويمضي المسحرّ، ونلحق به طالبين المزيد المزيد.. ويا ويل المسحر وسواد ليله إذا تلكأ في إشباع تشوّقنا.. لأن سلاطة لسان الأطفال تطالة:

■ أبو طبلة مرته حبلة   شو جابت ما جابت شي

جابت جردون بيمشي

ويكرّ علينا ثانية.. ونعود فنسترضيه.. ويشرع بالنقر على طبلته، فنتحلّق حوله ويقول:

■ عالضراير والربّة   ربّوا على قلبي الدبلة

من جورهم بعت الطبلة   وصفّيت حافي عريان

لما الضراير كادوني   من بعد عزّمي هانوني

وشلوطوا دأني بالنار

لّما الجديدة بجدّها   لّما العتيقة الكرّارة

هلّي صوتها ملاة الحارة

لـــا يسطرش ترضعها — مـن الوزير وأنا السلطان

صار لي ثلاثين ليلة سهارى — وأنـا الكحل بالحـارة

أولادكـــم أرزقـــون — حيطانكم طـــرملون..

بالـــرز حليـــب هتلون.. — مـــن المعمــولات لا تنسون

كـــل ســـنة وأنتم (سالمين) — وأولادكـــم (ســـالمين).

أحياكم الله إلى كل عام(٣٩)

٦- العيد والطفولة

ويمضي شهر رمضان، فإذا حلّ العيد يتجسّد حلم الأطفال المجنّح، ويعيش الأطفـــال ذلك الحلم حقيقة واقعة بكل جوارحهم، والفرحة تملأ كيانهم والبِشْر يغطّي وجوههم.. كنت تراهم يقفون مشدوهين أمام الحوانيت المقامة في الهواء الطلـــق، عـــلى شكل دكك خشبيّة مغطّاة بالستائر الحمراء والخضراء والألوان الزاهـــية الأخرى، بما صُفّ عليها من أصناف السكاكر والنوكا وراحة الحلقوم والألاعيـــب والفـــتّيش.. ومن هذه البسطات ما صُفّ عليه أطباق (صحون) صـــغيرة مملوءة بالملح والكمّون، وإلى جانبها حلّة واسعة مملوءة بالفول النابت (المســـلوق) وقـــد شدّ إلى جانبٍ منها حاجز قماشيّ يُمكّن الفتيات من أخذ حريتهنّ في أكل الفول النابت.. ومن وراء الحلّة يقف بائع الفول بلباسه الشعبيّ ينادي على الفول، بما يُرغّب الأطفال ويُسيل لعابهم:

"النابت نبت يا وْليدْ،

هلاْ استوى اللوز يا وْليد،

طلعت إيده هالنابت .

يلّلي ما بياكل نابت ما لـــه عيد..

كلّه لعيدك يا مدلّل".

ومن هذه البسطات ما توضع عليه أكداس من طواحين مخلل اللفت ومخلل الخيار والبعض "الملفوف" فيقبل الأطفال على التهام صحونها المزينة بهذه الأصناف من المخلل، ويغمسون في مرقها كعك الشرك "البقسماط" الخاص بها.. كل ذلك إضافة إلى بسطات شرابات الطويلة والقصيرة، وحلاوة الملوق وحلاوة حلّي سنونك(٤٠).

أما الفُرج فإنها تعطي العيد عند الأطفال رهجة لها نكهة متميّزة، ففيها من الغريب والمشوّق لدنيا الأطفال، ما يشدّ الرغبة إليها. وبخاصّة الرأس المقطوع المتكلّم، والحاوي "الساحر" والضبع الذي أكل بائع الحلاوة على طريق جوبر.. ويتوّج ذلك كلّه ركوب القلاّبات والدوّاخات والأراجيح وعربات مريكب والهودج... مما يقبل عليه الأطفال بشغف بالغ.. ويزيد في ذلك كشكول العربة، بشكله الغريب، وثيابه المذهلة، وحركاته المثيرة للضحك... وهو يحثّ الأطفال على الركوب.

وقد جرت على ألسنة الأطفال أهازيج تعبّر عن فرحتهم بالعيد، ومن ذلك ما كانوا يردّدونه وراء كشكول العربة:

■ اليوم عيدي..	يا لا لا
ولبست جديدي	يا لالا
فستاني الأحمر	يا لالا
عالصدر مكشكش	يا لالا
بوئف عالكرسي	يا لالا
يحكي إفرنسي	يا لالا
اوّيها منجاد	اوّيها منجاد

وجديــــر بالذكـــر أن جُلّ أغاني الأطفال وأهازيجهم في العيد كانت على لســـان البـــنات، وقد يردّدنها في مناسبات أخرى أثناء اللعب، وبخاصّة في دارة الحوحـــة.. أمّـــا في ســـاحات العيد، فإن أداء هذه الأغاني يكون بعقد دائرة تتراكض الفتيات في إطارها بما يشبه الرقص. ومن ذلك:

■ يـــا ســـتي عـــرجا عـــرجا ... يـــا مفـــتاح الطبـــنجا
خبّيـــته ورا البـــاب ... إجـــا أخـــي ســـرقه
لبســـني مـــن حلـــوه ... حلـــوه شـــقلي بقـــلي
حلـــوه طـــيّر عـــالي(٤١)

يـــا بنـــت الملوكـــي ... جـــايين يخطـــبوكي
عـــلى شـــألة طيـــنة ... بـــتعمّر مْدْيـــنة
وشـــو جـــابك لحارتـــنا ... حارتـــنا لولـــو ومـــرجان
حـــارتكن قمـــل وصيبان(٤٢)

ومـــن هـــذه الأغاني ما كانت تردّده البنات وهنّ ذاهبات إلى العيد، وقد أمسكن بايدي بعضهن وهن يتراكضن على خطوة ونصف الخطوة:

■ عالـــبابا عالـــبابا ... والجـــامع توّابـــا
عطونـــا عروســـتنا ... مـــا منعطـــيكن ياهـــا
إلاّ بـــألف ومـــية ... يـــا كعـــك ويـــا تمـــرية
كعـــك الشـــام غـــالي ... تســـلم دأن خـــالي
خـــالي بالـــبريّه ... عـــم يـــا كـــل تمـــرية
الـــت لـــه طعمـــيني ... آلـــى عـــند عشـــية
طفـــا ضـــوّ شـــعل ضـــو ... آل المدفـــع بُـــوّ(٤٣)

ومن ذلك:

■يا شمسة اطلعي لي لألعب عيلي
غسيلي بالعمارة نطّت علىّ الفارة
والفاره عندي عندي والليلة نامت عندي
سرقت لي الصينية
طلعت عالاسطوح رماني الهوا
رحت عالدكتور وصف لي دوا
الت له شو هالدوا آل لي فستق
وبندق وكعب الغزالي

وبعد.. خلص العيد وفرحاته وإجت الخوجة والشيخ وقتلاته. وهذا يقودنا إلى إلقاء بعض الأضواء على حياة الأطفال في دارة الخوجة والكتاتيب.

٧- في دارة الخوجة

درج الناس حتى أواخر العقد الرابع من القرن العشرين، على إرسال أطفالهم وبناتهم إلى دارة الخوجة والكتاتيب. كانت الخوجة تتخذ من إيوان دارها في الصيف، ومن إحدى غرف الدار في الشتاء.. مقرّاً تستقبل فيه روّادها من فتيات صغيرات وصبية صغار.. فتعلمهم بعض مبادئ القراءة والكتابة، وشيئاً من آداب السلوك والتعامل مع بعضهم.. كان أولئك الروّاد يجلسون على دكك مفروشة بما يجلبه الأطفال من حُشيات "طراريح" وبسط وجلد خراف. كان الدوام مستمر من شروق الشمس حتى غروبها كما أن معاملة الخوجة للأطفال مزاجية بعيدة عن أساليب التربية التي نعرفها في أيّامنا الحاضرة.. وقد صوّر لنا الأدب الشعبي الحالة النفسية التي كان يعاني منها الأطفال في دارة الخوجة في مقطوعات توارثنها الأجيال، وبقيت عالقة في أذهان

جيلنا.. ومن ذلك:

■ *يا معلماتي.. صفّوا الكراسي* — *جـايين ستّاتي على ضوّ الأمر*

تعـبان يـا ألـي.. تعـبان — *كلّـه مـن جـور الـزمان*

مـن صِـغر سـنّي ظلمونـي — *بـالمدارس حطّـوني*

يـا مـا بكيـت عـيونـي — *بكـيوا عـليّ الجـيران*

مدرسـتي حرئـت ألـبي — *غبّـت عـلى ألـبي غبّـت*

بطلـب مـنك يـا ربّي — *تبعـت لـلماما مكـتوب*

تصـرفني أبـل الغـروب(٤٤)

لذلـك كانت الفسحة بين الدروس المتنفس الوحيد الذي ينتظره الأطفال صـبياناً وبناتاً بفارغ الصبر. في تلك الفسحة يروّحون عن أنفسهم ويتنفسون الصـعداء، فيلعـبون ويمرحون ويغنّون، ويعقدون الحلقات وهم يغنّون أغانيهم المحبّبة(٤٥) ولعل من أمتع ما يغنّون:

■ *عـندي لعـبة بتغـنّي* — *كسـرها غصـباً عـنّي*

كسـرها وبكيـت بكيت — *يلّـلي بـيعرف بالتجـبير*

يجـي يجـبّر لي ياهـا — *ويـاخد نـيره عصـملّي*

يـا خدودهـا تفاح الشام — *وشـفافها رقّ الفـنجان*

مـا لي مـنها باسـتانبول — *أطيـب من صحن المعمول(٤٦).*

ومـن هذه الأغاني الأغنية التالية التي تدل بشكل مّا، على الأرضيّة الدينية التي أخذت بالتشكل في بيئة الخوجة:

■ *غـزالي غـزالي* — *طـاب جـرحي طـاب*

والأمـر سـلاّني — *مـا خـلاّني نـام*

أخدونـا وجابونـا — *عسـكر لبسـونا*

أخضـــر واحـــر

مشـــينا مشـــينا لعـــند الـــنبيّ

فاطمـــة بنـــت الـــنبي شـــدّي حصـــانك واركـــبي

لعـــند أبوكـــي هالـــنبي

تفاحـــته بجيبـــته الله يســـلم هيبـــته

هيبـــته رســـول الله لا إلـــه إلاّ الله.

وكـــان من الأغاني ما يوحي بالتعايش بين الأطفال مع بيئة دارة الخوجة، على ما كانت عليه تلك البيئة من طبيعة قاسية، والأغنية التالية تصور لنا جانباً مـــن ذلـــك التعايش، ولعلها شكلاً من أشكال التعلّم أو التطّبع مع هذه البيئة، وكـــان الأطفال يؤدونها في حلقات الدرس بشكل جماعيّ مع الدّلالة بالحركة لكل مقولة:

■حشيشة الي هالطول هالطول كـــبرت وصارت هالطول هالطول

هـــيك بيســـبحوا السمكات هـــيك بـــيطيروا العصـــافير

هـــيك بيـــنعدوا الشاطرين هـــيك بيـــناموا الكسلانين(٤٧)

ويعقب ذلك تصفيق من الجميع وإذا صدف وهطلت الأمطار والأطفال في الفسحة (الفرصة) تكون فرحتهم كبيرة وسرعان ما يتراكضون وهم يغنّون:

■ يـــا مطـــرة زخّي زخّي عـــلى أرعـــة بنـــت أخـــتي

بنـــت أخـــتي جابت صبي سمّـــته عـــبد الـــنبيّ

حطّيـــته بالطاســـة طلـــع صـــحن الماســـة

حطّيـــته بالطـــنجرة طلـــع صـــحن مجـــدّرة(٤٨)

تهجية من حرف وحركة

أَ	إِ	أُ	أْ	بَ	بِ
بُ	بْ	تَ	تِ	تُ	تْ

تهجية من حرف منون مشدد وحركة

أَّ	أِّ	أُّ	بَّ	بِّ	بُّ

تهجية من حرف منون وحركتين

أً	إٍ	أٌ	بًا	بٍ	بٌ

تهجية من حرف منون مشدد وحركتين

أًّ	إٍّ	أٌّ	بًّا	بٍّ	بٌّ

كلمات مركبة من حرفين

أَبٌ	أُمٌّ	أَخٌ	جَدٌّ	عَمٌّ	عِزٌّ
فَمٌ	كَفٌّ	لُبٌّ	مَدٌّ	ظِلٌّ	يَدٌ

أبجد هوز حطي كلمن سعفص

قرشت ثخذ ضظغ

الصبره

٨- الكتاتيب والطفولة:

إذا كـــان الـــتحاق الأطفال، ذكوراً وإناثاً، بدارة الخوجة، يرمي إلى إبعاد الطفـــل عـــن الزقاق والحارة، خوفاً من أن يكتسب الطفل، أيّ سلوك مناف لـــلأدب، أو أن يسمع أيّ كلام ناب.. فإن الطفل لا بدّ وأن يتعايش في دارة الخوجـــة مع أنداده وتنغرس فيه سلوكيات حب الجماعة والإيثار في إطار هذه الجماعـــة.. فضـــلاً عن تعلّمه الاعتماد على النفس، في تصريف بعض الأمور الخاصة، بعيداً عن مداخلة الأسرة.

أمـــا "الكُـــتّاب"، فهو المجال الأساس الذي يبدأ فيه الطفل بتلقّي مبادئ القـــراءة والكتابة، والسبيل الأول لاعتماد الطفل على نفسه، وبدء المحافظة على حاجاته الخاصة.

والحـــياة في المكتب، لا تقلّ رتابة وقسوة، عن الحياة في دارة الخوجة، فقد كـــان الأطفـــال يعانون في المكتب من كبت طاقاتهم، وإلجام حيويتهم، ضمن حـــدود التعلّم في المكتب. لذلك كانت الفسحة بين الدروس، المتنفس الوحيد للأطفـــال، وفي هـــذه الفسحة (الفرصة)، يمارسون بعض الألعاب على نحو ما ذكرنا.

وعـــندما يوفـــد الطفـــل أول مرّة إلى المكتب، كان يصحبه والده على الأغلب، فيسلّمه إلى الشيخ قائلاً:

-"مخدومـــك.. بدنا ياك تعلّمه القرآن.. هذا ابنك، اللّحم إلك والعظم إلنا".

وكان الاتصال بين الأهل والشيخ يتمّ أحياناً بوساطة الصبيّ نفسه، فيحمّله أهله كلاماً يقوله للشيخ، يُفهم منه سلوك الصبيّ في البيت.

كأن يقول الصبي للشيخ:

-"يسلّم عليك أبي، ويقول لك: ربوط الجدي بالعامرد، ونقص المصورة".

بمعنى أن الصبيّ يستحقّ التأنيب على سلوكه المشاكس في المنزل. وقد ينقل الصبي عبارة: "والنّعم" أو عبارة "والسبع تنعام". وتعني الأولى السلوك الجيد، والثانية سوء السلوك، ويبرر الشيخ توبيخ الصبيّ بأن الستيتيّة أخبرته بسلوكه السيّء في المنزل..

وللتلاميذ منازل في مجلس الشيخ، فالمبتدئون تكون مجالسهم بعيدة عنه، والمتقدمون أقرب إلى مجلسه، وذلك حسب ما وصلوا إليه في تعلّمهم، وهذا تحدّده السوّر القرآنية أو الأجزاء التي وصل إليها التلميذ، ومن ذلك: ختام جزء عمّ، ثم بلوغ سورة الملك (تبارك) ثم سورة ياسين، ثم بلوغ منتصف القرآن.. ويرافق ذلك تعلّم القراءة في الصبّرة وإتقان الخط في الكرّاريس المخصصة لذلك..

وإلى جانب الشيخ عصيّ مختلفة الأطوال ينال بها الصبيان القريبين منه والبعيدين عنه، بحيث لا يدع الشيخ صبياً يسلم من ضربته أو تحذيره. دون أن يبرح مكانه.

وإذا صدف وعيل صبر الشيخ من سلوك أحد التلاميذ، فيكون نصيبه الفلقة(٤٨).

وكلما تعلّم التلميذ ما خصّص لـه في رهطه، انتقل إلى رهط آخر، ثم إلى رهط آخر، حتى يتّم تعليمه بختم القرآن الكريم. وبختم الصبي قراءة القرآن ينهي دراسته، وينصرف إلى ممارسة صنعة أبيه، أو شقّ طريقه في الحياة بتعلّم حرفة أخرى.

*

الحواشي

(١) د. عبد الحميد يونس: دفاع عن الفلكلور. ص: (٩٦-٩٧) الهيئة المصرية للكتاب- ١٩٧٣.

(٢) السيرة الحلبية (١١٤/١) المكتبة التجارية، القاهرة - ١٩٦٢.

(٣) الأمالي ج: (٢) ص: (١١٨).

(٥) د. أحمد أبو سعد: الغناء للأطفال، م التراث الشعبي ص: (٢١٥). العدد: (٦ و ٧) ١٩٧٤ بغداد.

(٦) أمّ الزوج وشقيقاته.

(٧) سورة الكهف. الآية: (٤٦).

(٨) المرا: المرأة. ولاد: أولاد. وتاد: أوتاد.. الشرش: الجذر يمتدّ في التربة، أرادوا من عبارة شرشها على بلاط: انعدام الروابط الأسريّة الوشيجة.

(٩) مو: ليس. السليقة: القمح المسلوق. المعلاق: من سقط اللحم، ويضمّ مري الخروف وكبده (السودة) ورئتيه، فضلاً عن: القلب والطحال والكليتين، يقطّع ويتبّل بالبهارات والملح ويشوى على النار. أو يُطهى مع البصل المفروم والكزبرة الخضراء المفرومة، وهذا ما يُعرف بالمعلاق المطجّن.. وتناول المعلاق على نحو ما ذكرنا يكون بالأفراح الماثلة أو النزهات.

عرق الطنجرة: الطنجرة: قدر يُطهى بها، وعرق الطنجرة هو البخار المنعقد على غطاء الطنجرة من الداخل.

(١٠) سعيد الدبوه: إشعار الترقيص عند العرب. ص: (٥).

(١١) انظر كتابنا: يا شام، في التراث الشعبي الدمشقي ط: (٣) ص: (١٩-٢٠).

مطبعة ابن خلدون بدمشق ١٩٨٤ وأيضاً كتابنا الحمامات الدمشقية ط(٢) ص (٣٢٥) بحث سرقة الأطفال من الحمام، مطبعة ابن خلدون بدمشق ١٩٨٦.

(١٢) كريم علكَم الكعبي: من ترانيم الأطفال. م. التراث الشعبي البغدادية ص (٢٦-٢٨) العدد: (٦) ١٩٨٠.

(١٣) شو: ما هذه. الألوب: القلوب. اللّي: التي. إلهنّ: لهم، اسيت: قست. علّي: على الذي. حاج: كفاية. تنشضوا: تنكثوا.

(١٤) الخراط: من يهذّب الخشب، ويصنع منه قطعاً وأشكالاً في صناعة الأثاث، وفي برامق الدرج (الدرابزين) كحاجز، والمثل كناية عن الندرة في وجود المثيل.

(١٥) جابوا: ولدن. انخنوا وشابوا: كناية عن الشيخوخة. برطلوا: قدموا الرشوة. الدايات: ج. م: داية، وهي القابلة. والخبز الأبيض في العرف الشعبي: طعام من لا يملك في داره كوارة (مستودع) للحبوب، أو الطحين الكسر، الذي يشمل جميع عناصر القمح دون استبعاد

السنحالة منه. وهو الذي يطلق عليه العامّة اسم: راسه بعبّه. ومن هنا كان المثل الشعبي: "الخبز اللين، فقر مبيّن".
وفي الأغنية إشارة إلى تميّز الأغنياء عن سواد الشعب بتناولهم الخبز الأبيض الخالي من النخالة، لترفّعهم عن تناول خبز الشعب.

(١٦) ستّي: سيدتي. النأد: الصداق. الأمة: حبّة القمح. ملاة: ملىء.

(١٧) هيّ: هذه. يا دلّي: مقولة دلع. منين لي: من أين لي. أربية: قريبة.

(١٨) انظر كتابنا: يا شام ص: (٣٣).

(١٩) عبلادة: على بلاده. الشوحة: من الطيور الجوارح، تقتات بغاث الطير. بلكي: ربّما. العلّية: السقيفة. الحيّة: الأفعى. الحضرة: حلقة الذكر يعقدها مشايخ الصوفية (الزار).

(٢٠) انظر كتابنا يا شام ص: (٣٧-٣٨).

(٢١) إيش: أيّ شيء. لمّنْ: عندما.

(٢٢) الأيمع: مغلي الحليب مع السحلب والسكّر، يبرد ويدقّ بمدقات خاصة في أواني أسطوانية نحاسيّة محاطة بالثلج والملح حتى يجمد. ومن الأيمع ما كان بالقشدة والفستق الحلبي. الوشّ: الوجه. الزغور: الصغير. السيران: النزهة. وقد تقدم هذه المقطوعة للذكور على وجه الكناية.

(٢٣) عرء: عرق، غصن. إجا: جاء، لآ: وجد. كمشته: قبضته. دبحته: رقبته. الطاءة: الكوّة. كركر: دغدغ.

(٢٤) نأر: نقر. هالوشّ: هذا الوجه. إلت له: قلت له.

(٢٥) القمل: حشرة تنعشها قلة النظافة، وتُعرف بيوضها بالصيبان.

(٢٦) بعتتني: أرسلتني. وئع: وقع. تعلّتني: تعلقني. الحلأ: الأقراط. الدبوس: ملقط الشعر. أوه: للتعجب والانبهار. باصل: يصل.

(٢٧) ما منعطيكم: لا نزوّجكم. ياها: إيّاها. جوات: وسط. هيّ: هذه.

(٢٨) الجردون: الجرذ. خليّ: دعي. هون: هنا. ما تلاقيها: لا تجدينها. أششش: أجمع. نيرة: ليرة.

(٢٩) جاجة: دجاجة. إتك: قتك، وهو الختم.

(٣٠) طاقيّة: طاقية، قبعة، قلنسوة. الديل: الذيل، طرف الرداء الأسفل.

(٣١) دحل: من دحرج. الطحموش: من طحمش، أرادوا بها القضاء على كل ما يصادفه من طريقه. النكلة: نصف القرش، نقف: دفع بقوّة.

(٣٢) ركاب: من ركب. وين: أين. الضهرين: أرادوا ما بين الكتفين، خود: خذ. حمارك: أرادوا حمارك.

(٣٣) بري: مرحى، وهي هنا بمعنى مستعد أو جاهز.

(٣٤) القنب: نبات عشبي حولي ليفي، يزرع للإفادة من ألياف سوقه التي تستعمل في صناعة نسيج الجوت، وصنع الحبال وخيطان المصيص.

(٣٥) انظر كتابنا: الشام أيام زمان في رمضان. ص: (١١٦-١١٩) منشورات مؤسسة النوري بدمشق ١٩٩٢

(٣٦) تم: لـلمفرط في السمنة. بزا: بصق. هلأ: هلق. الجنزير: سلسلة حديدية. حلأ: قرط. المشناة: المشنقة. بيت المي: دورة المياه.

(٣٧) أرغفة السناعم: عجين مالح يجفف على صاج من نحاس على نار لينة على شكل رقائق بسمك نصف (سم) . وقد يجفف تحت أشعة الشمس ثم يقطع العجين قطع بحجم الكف الصغير، وتُقلى تلك القطع بالزيت ثم تُزيّن بالدبس. انظر كتابنا: الشام أيام زمان.. في رمضان ص (١٣٧-١٣٨) وأيضاً قاموس الصناعة الشامية للقاسمي ج (٢) - ص (٢٢٧) رقم (١٢٨) .

(٣٨) معاني: من المعاناة. عشش: سكن وأقام. أداني: أذني. عنفظ: هرب. جاب: أحضر. حديّاني: كناية عن الإرباك. شو: ماذا. مبارح: البارحة. شاوأ: مزّق. شالت: حملت. أبو بريص: من الزواحف. وهو الوزغة. ويعرف بالشام بالأبرص. لأنه يفرز مادة، تتسبّب في إصابة من يلمسها بالبرص، كما يعتقدون.

(٣٩) الدّبلة: الهموم. هلّي: التي. ملاة: ملئ. اتكعتل: اتعثر. اروشوني: ضقت ذرعاً بهم. طرغوني: كناية عن التعثّر والارتطام بالجدران في الحارات الضيّقة.

المعمول: أقراص من حلويات العيد، تصنع من دقيق معجون بالسمن والسكر، وغبّ أن يختمر يقطّع بحجم حبّة الجوز، ترقّ وتحشى بالفستق الحلبي أو الجوز المبشور والمعجون بالسكر وماء الزهر، ثم توضع في قالب لتأخذ شكله، وبعدّ ذلك تصفّ في أواني خاصة ومن ثم تخبز بالفرن.

(٤٠) طلعت: يده: كناية عن النضوج، هلأ: الآن. كلّه: جميعه، اليخنا: الملفوف. الطويلة والقصيرة: أوان زجاجية يختلف طول ساق الواحدة منها عن الأخرى، لكن منها الرفيع الساق ومنها الغليظ الثخين، وبذلك يكون استيعابها متقارباً.تملأ هذه الأواني بشرابات ذات ألوان زاهية، يُقبل على احتسائها الأطفال في العيد. وحلاوة الملوق، هي ما صنع من معقود السكّر باللوز أو الجوز أو السمسم أو الفستق الحلبي وقد تصنع من بزر المشمش الحلو أو الفول السوداني.

يؤتى بصينيّة (صفحة) مستديرة مقسّمة إلى مثلثات فيوضع بكل مثلث منها نوع من هذه الأصناف وفي مركز الصينية محور عليه سهم ... فإذا أراد الطفل أن يشتري الحلاوه يبرم السهم فيدور، ويكون نصيب الطفل من الحلاوة التي يتوقف عندها السهم. فيأتي البائع بقطعة معدنية الملوق"أشبه بمؤخرة الملعقة ويغرف من تلك الحلاوة، فيتناولها الطفل بأسنانه، وينتزعها عن القطعة المعدنية.

(٤١) الطبنجا: نوع من الأسلحة النارية أشبه بالغدّارة. ورا: وراء.

(٤٢) شأفة: قطعة. قمل وصيبان: انظر الحاشية (٢٥) من هذا البحث.

(٤٣) ياهـــا: إياهـــا. التمريّة: رقائق من العجين الرخو، تقلى بالزيت ويرشّ عليها مائع الدبس. البريّة: أرادوا الحقل. طفا ضو: انطفأ الضوء، والمقولة كناية عن حلول المساء.

(٤٤) الأمر: القمر. حرلت: حرقت. غبت على اليّ: ضقت بما ذرعاً. أبل: قبل.

(٤٥) قد تؤدى هذه المقطوعات في مناسبات أخرى، وبخاصة في العيد.

(٤٦) نوه عصملّي: لورة ذهبية عثمانية. يَلّلي: من.

(٤٧) حشيشة اليّ: حشاشة القلب، أرادوا الطفولة. هالطول: بهذا الطول. هيك: هكذا.

(٤٨) أرعـــة: أرادوا الـــرأس. جابـــت: ولـــدت. مجـــدّرة: مـــن المأكولات الشعبية. وقوامها العـــدس المســـلوق، يطهـــى مع البرغل بالزيت ويزيّن بالبصل المفروم على شكل جوانح بعد أن يقلى بالزيت.

(٤٩) بدنـــا يـــاك: نرغـــب إليك. اللحم إلك: كناية عن إطلاق يد الشيخ في أمر تربية الطفل وتعليمه. ربوط: إربط. الجدي: أرادوا الطفل. نقّض الحصيرة: كناية عن الطلب إلى الشيخ توبيخ الطفل أو معاقبته لسلوكه السيّء في المنـــزل. الفلقة: عصا غليظة تقبت من طرفيها. يُدخـــل في أحـــد الثقبين بداية حبل متين من المرس... ويُدخل في الثقب الآخر نهاية الحبل بحيـــث لا يزيد طوله عن المترين. وتعقد بداية ونهاية الحبل عقداً محكماً. وبذلك يتدلى الحبل مـــن الوســـط. وكان الطفل المخطئ يطرح أرضاً، وتوضع قدماه بين الحبل والعصا، وتبرم العصا فيلتفّ عليها الحبل، فيشدّ على ساقي الطفل، فيرفع الساقان بالفلقة إلى أعلى، مواجهة للشـــيخ فيـــنهال على القدمين بعصاه ضرباً بمقدار الذنب الذي ارتكبه الطفل. أما الصّبرة: فهي كراس صغير من ورق أصفر (هشّ) . من هذه الأوراق ما طبعت فيها حروف التهجي مـــنفردة واضحة جليّة بأشكالها المعروفة (حروف أول الكلمة وأوسطها وآخرها) ومنها ما طبعـــت فيها الحروف متصلة بالحروف الصوتية، وما طبعت فيها حروف الهجاء منفردة في صـــفحة خاصـــة، ومـــتفردة مع حركة واحدة، وصفحة أو أكثر لتهجية من حرف منوّن وحركتين.. ويأتي بعد ذلك الكلمات المركبة.

**

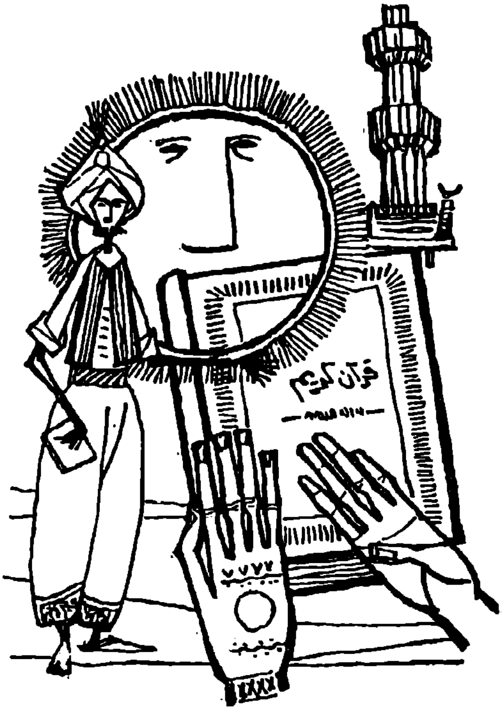

التربية في المثل الشعبي

التربية في المثل الشعبي.

- المثل في القرآن:

عملــت الأمـــثال في القرآن الكريم، على تهذيب الطبايع، وتقليم الغرائز الشــريرة. والتخفــيف مـــن غلـــواء النفوس، والحدّ من ضراوتها وكبريائها وغـــرورها.. فهـــي ترشد النفوس إلى الخير.. وتحضّها على البرّ.. وتدفعها إلى الفضائل كما أنها تمنع هذه النفوس عن الإثم وتدفع عنها الشوائب والنقائص(١)

-أحوال المجتمع في المثل الشعبي

والأمـــثال على صعيد المأثور الشعبي، ليست شكلاً من أشكال الفلكلور وحســـب. وإنما هي أيضاً سجل لأحوال المجتمع وعبقريته وفطنته وروحه(٢). وفـــيها تـــبدو نظـــرة الناس إلى الحياة، ومذهبهم في أنماط السلوك، وعلاقاتهم الاجتماعـــية.. كما أنها تكشف جوانب شتى من الحياة اليومية، ومن العادات والتقالـــيد التي تنتظم حياة الناس. الأمر الذي يفسر إجلال الناس لها والتزامهم بها.

-مواكبة المثل الشعبي للحياة.

أرضـــيّة المثل الشعبي، تصدر عن بيئة بسيطة، تعيش حياتها يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، بأسلوب يعتمد على التجربة اليومية الحياتية المعاشة(٣).

ولمــا كانت الحياة اليومية في تبدل، والعلاقات الاجتماعيه في تطور، فإن المعــايير التي تحكم حياة الناس وعلاقات الأفراد ونظرتهم إلى الحياة.. لا بُدّ وأن يطــرأ علــيها تبدّل يساير ذلك التطور... الأمر الذي رافقه تطور في مقولات الأمــثال ومضــامينها ومدلولاتها بشكل يتناسب ودور المثل الشعبي في تصوير العلاقــات التي تسود بين أفراد الجماعة بأبعادها ومُثلها وأفكارها ومواقفها من الحياة. وبالتالي تولُد أمثال جديدة تتوافق والواقع الجديد.

لكــن مــن الأمثال، ما يتصدى إلى أنماط من السلوك، والمُثُل والمواقف، والحِكَــم والعِــبَرْ.. والأهــواء والأنواء. والأشكال الأخرى التي تنتظم حياة المجــتمع.. هذه الأمثال على نحو من الديمومة والثبات في كل زمان.. لما لها من أثــر في تنمية جوانب الخير والتعامل والمعرفة.. لذلك يمكن القول أن البحث في هــذا الجانب من الأمثال، إنّما هو بحث في حياة الناس، ونشاطاتهم وسلوكهم وتعامــلهم وأخلاقهــم وعــاداتهم...ويُعــدُّ هذا البحث خطوة هامّة في مجال الدراســات الإنسانيّة، لما تتميّز به هذه الأمثال، من البراعة ودقّة المعاني وحلاوة اللفظ وصدق الأداء، وفائدة العِبرة وشدّة اللصوق بالناس... فهي والحال هذه خلاصة تجربتهم في الحياة، ومستودع خبراتهم. ومنار حكمتهم... والخروج عن هذه الأمثال... هو خروج عمّا تعارف عليه القوم، وما تواضع عليه الوجدان الجمعي.

ـ *أبعاد في أمثال التربية:*

وقد تصدّت هذه الأمثال فيما تصدّت، إلى رصد مفارقات الحياة اليوميّة، وجعلــت ديدنهــا ينصبُّ على تقويم ما اعوجَّ من قول أو سلوك أو تعامل... واســتخدمت في ذلــك أسلوب الزجر تارة، والتقرير تارة، وأسلوب التساؤل وتجاهل العارف تارات أخرى.. وسنحاول في هذا البحث إلقاء بعض الأضواء على جوانب من هذه الأمثال بالوقوف، محطات صغيرة عند أبعاد:

الاعتدال والقناعة، وإسداء النصح والتعامل بين الناس، والالتزام بالأعراف والتقاليد، وحفظ اللسان، التصدي لتاكر الجميل والاستعلاء على الآخرين، وصولاً إلى بلورة المفاهيم القومية والإنسانية في أمثالنا الشعبية.

***

١ - الاعتدال والقناعة:

الاعتدال في علاقات الأفراد مع أنفسهم، وفي علاقات بعضهم ببعض أمر مطلوب في حياتهم اليومية. لأنّ من يثقل على صاحبه، ويشقّ عليه، ويحمّله مالا طاقة له به، مستغلاً طيبته وتسامحه... ومن يستنفد الصداقة على نحوٍ من الابتزاز والأنانية... قد يجعل الواحد منّا يخرج من جلده، وقد صوّر لنا المثل الشعبي هذا الموقف بقوله:

- ***إذا كان صاحبك عسل... لا تلحسه كلّه.***
- ***شي منّه... ولا كلّه.***

ومن أمثال العرب في ذلك قولهم:

"إذا كان لك أكثري..... فتجاف عن أيسري".

وفي السياق نفسه، يطلب المثل الشعبيّ من الإنسان أن يضع الحدّ على الذات، بأن يخضع المرء نفسه للرقابة الذاتية ومحاسبة الضمير... ويحبّ للآخرين ما يحبّ لنفسه.. ويكون منصفاً في تعامله معهم.

فكان المثل القائل:

- ***حط أصبعتك بعينك... مثل ما بتوجعك بتوجع غيرك.***

والاعتدال في تناول الطعام، أمر مسلّم به، لما ينجم من الشرَه من آلام

ولوجاع تنتاب الشَرِه الفجع! تفضُّ عليه مضجعه، وتقلّب لـــه مواجعه!!...

وعبّر عن ذلك المثل الشعبي بقوله:

■ *إذا الأكل مو إلك... بطنك موالك؟!(٥).*

وفي ذلك قول رسول الله ﷺ:

[البِطنة تُذهِب الفِطنة].

[نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع].

ومن أمثال العرب في ذلك قولهم:

"ربَّ أكلة.. تمنع أكلات".

"أقلل طعامك... تحمد منامك".

فضــــلاً عـــن ذلـــك، فإن أمثالنا الشعبية، تحضُّ على القناعة، في مطالب الإنســـان الآنية، ومُتعه العاجلة، كشكل من أشكال الاعتدال، في الإقبال على مغانم الحياة. للإبقاء على المودَّة بين الناس ولإحلال السماحة في العلاقات العامَّة والخاصَّة بينهم، فالمثل الشعبي القائل:

■ *الطمع... بالجامع.*

دعـــوة صـــادقة للعمـــل الصالح، والعمل الصالح هو التقوى والبعد عن الانحراف. والسلوك الذي لا يقبله الوجدان الجمعي.

ولا يخفـــى ما للطمع والجشع، وما للإقبال على الدنيا من مزالق، قد تورد المرء موارد التهلكة، ومن المأثور:

"اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً".

وقالت العرب في هذا المعنى أمثالاً كثيرة نذكر منها:

"القناعة كنـــز لا يفنى".

"حسبك من غنى.. شبع وريّ".

"في الطمع.. مذلّة للرجال".

"أكثر مصارع الرّجال... تحت بروق المطامع".

ولعل المثل التالي البلسم الشافي لمثل هذه الحالة:

■ *لا يموت الديب.. ولا يفنى الغنم.*

فخير الأمور أوسطها، و"الطمع ضرّ ما نفع".

٢- إسداء النصح والتعامل:

إذا كان المثل الشعبي يحمل في طيّاته روح الردع والاستذكار.. فإنّه لا يتخلّى في إسداء النصح والتوجيه، ولو كان ذلك بلهجة الأمر أو التقرير، وبخاصة إذا كان ذلك يتعلق بطاقة المرء أو مقدرته وإمكاناته. ومن ذلك قول المثل الشعبي:

■ *على أدّ فراشك.. مدّ إجريك".(٦).*

قال الشاعر:

ما كلّف الله نفساً فوق طاقتها ولا تجود يدٌ إلاّ بما تجد

كما تدعو الأمثال إلى الموقف الشهم في علاقات الناس، وتطلب إلى المرء أن يمتلك الشجاعة والجرأة، والصدق، والصراحة، في قوله ومواقفه من الآخرين. وفي ذلك قول المثل الشعبي:

■ *حكي الوشّ أوّة... وحكي الأفا مروّة.*

■ *خبز الرجال عالرجال دين.. وعالأندال صداة.(٧).*

لأن مَن يُنجز ما يعد، ويفي بما يقول، ومن لا يضيع معه المعروف، مهما امتدّ به الزمان، خليق بالاحترام والتقدير، وأن يُشار إليه بالبنان. فيكون

قسوة تحتذى. وهذا يذكرنا بقول الحطيئة، وهو من الشعراء المخضرمين بين الجاهلية والإسلام:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه   لا يذهب العُرف بين الله والناس

وبالمقابل، يقدّم لنا المثل الشعبيّ ـ صورة مغايرة لمن يداهن ويمالئ ويخادع، فيظهر الودّ في حضورك، فإذا غبت عن ناظريه، انصرف إلى غيرك يمدحه ويودّه ويتملّقه، ويعرّيك من السّمات والمناقب، ويغرقك في المثالب، ويخلع عليك نعوت النقائص... مما يصوره لنا المثل الشعبيّ القائل:

■ *بوشّين.. ولسانين.*

■ *بالوشّ مراية... وبالأفا صرماية.*

وعن رسول الله ﷺ:

[إن ذا الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيهاً].

وقال أبو تمام:

ليس الصديق بمن يعيرك ظاهراً   مُتَبَسِّماً عن باطن متجّهم

ومن شعر الحكمة:

يعطيك من طرف اللسان حلاوة   ويروغ منك كما يروغ الثعلب.

وقد شبه المثل الشعبي هذا النوع من البشر بقوله:

■ *مثل حيّة التبن... بتترص وبتخبّي راسها*.(٨).

لأنه يُظهر لك المحبّة، والحرص على مصلحتك، والتباكي من أجلك.حتى إذا وجد مصلحته عند غيرك، قلب لك ظهر المجنّ،وافتأت عليك ونال منك...

وفي ذلك قول رسول الله ﷺ:

[المسلم من سلم المؤمنون من لسانه ويده].

ومن أمثال العرب في ذلك:

"كالسيل تحت الدّمن".

ولا يقـــلّ النمّام في ذلك سوءاً، لأنه يزرع الأحقاد والشرور والعداوة بين الصحب والأحبّة، بما ينقل ويؤوّل من كلام وأخبار وخصوصيات.

وفيه يقول المثل الشعبي:

■ *الله يلعن العجيب.. يلّلي بياخد وبيجيب"* (٩).

قال تعالى في محكم التنزيل:

﴿همّاز مشّاء بنميم، منّاع للخير معتدٍ أثيم﴾(١٠).

٣- الالتزام بالأعراف والمثل:

لا يقـــف المثل الشعبي عند ذلك الحدّ من التعرّض لأنماط السلوك التي نأت عما تعارف عليه الناس.. فقد ترك لنا أسلافنا أمثالاً تحذر أو تغمز من قناة كل مـــن تحدثـــه نفســـه الخروج عن النهج الذي تواضع عليه الوجدان الجمعي في العلاقات العامة، ومن هذه الأمثال:

■ *من غربل الناس.. نخلوه.*

■ *يلّلي فيه مسلّة.. بتنغزه.*

■ *يلّلي بيته من إزاز... ما بيرمي الناس بحجار.* (١١).

للتصـــدّي لمن يجعل همّه تصيّد الآخرين، وتتبّع عوراهم ومثالبهم والتشهير بها، وجعلها محور حديثه في حِلّه وترحاله، على نحو مقيت، لا يرضى به عقل، ولا ضـــمير... وهـــو أشدّ النّاس حاجة إلى ستر عيوبه، ونقائصه.. مما يذكرنا بالمثل الشعبي القائل:

■ *لو شاف الجمل حدبته... لوئع وانكسرت رابته"* .(١٢).

ومن أمثال العرب في ذلك:

"رمعي بدالها.. والسلت".

8 - حفظ اللسان:

وكـــان لسان المرء، أكثر ما تصدّت لـــه أمثالنا الشعبية، بالتوجيه، والنهي والتجريح، والتقريع، والنقد. لأنّ من يُطلق لسانه، في ما يقذع من القول، ولا يـــردعه رادع ولا وازع من خُلُق، لأبدَّ وأن يُلجم لسانه، ويلتزم بما تواضعت علـــيه الجماعة من توادّ ومحبّة وإيثار. وبالتالي يسلم الناس من شرّه، وإسرافه في الـــتعدي على حرماتهم. وقد حفظت لنا ذا كرتنا الشعبية، العديد العديد من الأمثال، التي تحرص على نظافة اللسان، من الزلل والزلق، في ما لا يُحمد عقباه، تأسياً بقول رسول الله (ﷺ):

[المرء بأصغريه، قلبه ولسانه].

[رحم الله عبداً قال خيراً فغنِم، اوسكت فسلِمْ].

فقدر المرء بين فكّيه، وكان من الناس من يتمنى أن تكون رقبته بطول رقبة الجمل حتى لا ينطلق لسانه بكلمة تخدش الآخرين.

وفي ذلك قول المثل الشعبي:

- ***لسانك حصانك... إن صنته صانك، وإن خنته خانك.***
- ***إذا الكلام من فضّة... فالسكوت من ذهب.***
- ***اللسان الحلو... بيطالع الحيّة من وكرها.***

ومن أمثال العرب في ذلك قولهم:

"إن البلاء.. موكل بالمنطق".

"رُبَّ رأسٍ... حصيدة لسانه".

"رُبَّ حرب.. شبّت من لفظة".

وقال الشاعر:

احفــظ لسانك أيها الإنسان   لا يلدغــنّك إنــه ثعــبان.
كم في المقابر من قتيل لسانه   كانــت تهــاب لقاءه الشجعان

وهم يقولون في الشّرير النــزق، من لا يحسب لعواقب الأمور حساباً، ولا يخجــل من نفسه في تعامله مع الآخرين، ولا يداري مشاعرهم، فلا يجدي معه نصح أو وعيد:

■ *لسانه فلتيّ... وإيده فاروطيّة.*

وللسوقيّ في تصرفه:

■ *لسانه مثل مقصّ السكافي، ما بيئصّ غير على نجاسة.*

ولمــن يحــابي في تعامله، ومن لا تعوزه حيلة للإقناع، والوسيلة عنده تبرز الواسطة:

■ *لسانه مثل الشخته... شلون ما داره بيندار معه.*

وللمناور المشاكس:

■ *لسانه... بسبع شطلات.*

وللمقذع من الكلام:

■ *لسانه.. متبرّي منه.*

ولكثير الكلام والقيل والقال:

■ *لسانه.. ما بيفوت لحلقه.*

■ *بالع راديو.*(١٣).

وقال الشاعر:

أعلّمه الرماية كل يوم ... فلما اشتدّ ساعده رماني

٦ـ الاستعلاء

وكان للمثل الشعبي الأثر الفاعل، في بلورة المفاهيم التي تربط الإنسان بأخيه الإنسان، في إطار من الإلفة والتوادّ والتحابّ والتسامح والغيريّة.. فكان منه أن رصد النفس البشرية، وسبر غورها، ووقف على مكنون طبيعتها وآفاقها، وجوانب الخير فيها.. ودأب على تشذيب ما اعوجَّ من سلوك أو خطاب.

وقد صور هذا المثل فيما صوّره، من أشكال التعامل بين الناس وأساليبه، مشاعر الاستعلاء، وسلوك الفوقية... مما قد يطفو على سطح الكيان الاجتماعي من خلال سلوك فرديّ، أو نزوة عابرة طارئة، لا تنمّ عن طبيعة بشرية سويّة..

وسلك في هذا الشأن سُبُلاً متعددة، كإسداء النصح، أو التنبيه، أو التورية، وقد يعمد المثل إلى أسلوب التقريع والتنديد مرات أخرى...فلكلّ مقام مقال.

فمن يرى الناس أقلّ منه شأناً ومقاماً، ومن يركبه الغرور، بما آل إليه من موقع اجتماعيّ، أو نِعَمٍ سابغة يخاطبه المثل الشعبيّ بقوله:

■ ***كبر الأمر وتدوّر... ونسي زمان الأوّل.***(١٦).

قال تعالى في محكم التنزيل:

■ **﴿إنَّ الله لا يحبُّ كل مُختالٍ فخور﴾**.(١٧).

■ **﴿إنّك لن تخرق الأرض، ولن تبلغ الجبال طولاً﴾**.(١٨).

وقد تكون لهجة الخطاب، أكثر حدّة، حين يتعالى المرء على أنداده، ويتجاهل أحب الناس إليه... فيضمّن المثل في ثناياه شيئاً من العتب، في إطار

من التقريع والاستهجان... ومن ذلك قولهم:

■ ***كسرت البيتنجانة وتدلدلت جراسها.. ونسيت إلّة الزبالة يللّي على راسها.***

ومن أمثال العرب في ذلك قولهم:

"كنت كراعا.. فصرت ذراعاً".

وللمتعالي يجرّح بالآخرين، متجاهلاً عثراته وعيوبه، يقول المثل:

■ ***من إيمتى غسلتها بليفة... وصرت نايب الخليفة.***

■ ***برله يابرلة منين لك هالريحة.. كنت مغنية صرتي شيخة.***(١٩).

وفي ذلك قول المثل العربي:

"في استها.. مالا ترى".

قال الشاعر:

أشدّ عيوب المرء جهل عيوبه ... ولا شيء بالأقوام أزرى من الجهل

أمـــا من يتظاهر بالغِنى والسِّعة، ولا يملك ما يسدّ حاجاته الضرورية يقرّعه المثل الشعبي بقوله:

■ ***قبل ما تاكل رزّ وبيتنجان.. خبّي دبرك العريان.***

■ ***لباس ماله... دكّته باربعتشر.***

■ ***أمّ فستان مطّبع.. صار لها أصر ومربّع.***(٢٠).

وقـــد ذكـــر الابشيهيّ(٢١)، في المستطرف، المثل التالي من أمثال العامة والمولدين في أيامه، في إطار هذا المضمون:

■ ***بدال لحمتك وقلقاسك.. هات لك شدّ على راسك.***

ومن أمثال العرب في ذلك قولهم:

■ "راس في السماء.. واست في الماء".

وقالوا لمن يدّعي بحبوحة العيش والرفاه والحسب والنّسب والعزّ والسؤدد، ولا يتوانى عن تناول الناس قدحاً وذمّا، وتيهاً وكبرياءً:

■ *حارتنا زغيرة... ومنعرف بعضنا.*

■ *آل يا أبي شرّفني.. آل ليموت مين يعرفني.*

ولمن يكبر مقالاً، ويصغر فِعالاً يقول فيه المثل الشعبّي:

■ *باين عليك... وعلى أوالبك.*(٢٢).

قال الشاعر:

وما تخفى المكارم حيث كانت ولا أهـــل المكـــارم حيث كانوا

أمـــا مـــن يُـــرواغ ويُداهن ويتعالى على من حوله.. وهو غير أهل لذلك فيخاطبه المثل الشعبي، على سبيل الاستهجان والاستنكار، بقوله:

■ *نط من القفةّ.. لأدانها..*

ولم يغفـــل المـــثل الشعبي، عن تناول من يتزيّا بماليس فيه، وماهو غير أهل لـــه.. ومن تغرُّه المظاهر وتفتنه ألقاب الجاه، للظهور أمام الناس، ومعدته خاوية يعضّها الجوع فقال في هؤلاء:

■ *بيقلّد الأكابر... بشحط الكنادر.*

■ *صبّاط يزازئ.. ولا طنجرة تبابى.*(٢٣).

ومن أمثال العرب في هذا المعنى قولهم:

"بطن جائع... ووجه مدهون".

قال الشاعر:

كمن كسا الناس بعد عُريٍّ وعورته   للـــناس باديـــة ما إن يواريها.

ـ المفاهيم القومية في أمثالنا الشعبية:

إذا كانـــت مضامين الفكر العربي، ومُثُل الإنسان على امتداد الوطن العربي مـــن مشـــرقه إلى مغربه، ظلّت في أحاسيسها ومشاعرها ترتبط بوشائج، تجعل الإنسان العربي مشدوداً إلى أخيه العربي، في أية بقعة من العالم، وعلى أية أرض عربية... فإن أمثالنا الشعبية ظلّت ماثلة في ذهن هذا الإنسان ووجدانه، على ما طرأ على المجتمع من تطور وتبدّل، تناول معايير حياة الناس وعلاقاتهم ونظرتهم إلى الحياة..

وكـــان مـــن المفروض أن يتصدّى الباحثون في التراث الشعبيّ للبحث في مواطـــن التلاقي في المثل الشعبي على صعيد الوطن العربي.للوقوف على طبيعة هذه المضامين، والمواقف والدلالات والأفكار التي تطرحها هذه الأمثال.

وإذا كـــان التصـــدّي لمـــثل هذا العمل يتطلّب مراكز أبحاث في العلوم الإنســـانية، فقـــد تفرّد أناس كان لهم دور الرّيادة(٢٤)، في هذا الشأن، وكان مـــنهم الباحـــث عـــبد الـــرحمن التكريتي في كتابه "دراسات في المثل العربي المقارن"(٢٥)، وموسوعته: "الأمثال البغدادية المقارنة".

وكان من هؤلاء الرواد أيضاً الباحث محمد قنديل البقلي في كتابه: "وحدة الأمـــثال العامـــيّة"، وقـــد عمد فيه إلى عقد موازنة بين المثل الشعبي في القطر المصـــري، ونظائـــره في الأقطار العربية... وحذا حذوه الباحث إبراهيم أحمد شـــعلان في كـــتابه: "الشعب المصري في أمثاله العامية". ويمكن أن نعدَّ كتاب "الأمـــثال اليمانية" للأكوع والدراسات التي قدمها الدكتور هاني العمد(٢٦)، خطوة على هذه الطريق.

ومـــا من شكّ، في وجود هذا التشابه والتماثل، في مضمون المثل الشعبي، عـــلى صعيد الوطن العربي، اللهم من بعض إشكالٍ في منطوق المثل بين منطقة

وأخرى، نتيجة لتباين اللهجات المحلية... وبالطبع فإن هذا لا يمسّ جوهر المثل، وهو موجود في جميع أمثال العالم. ومع ذلك فإن تباين منطوق المثل الواحد بين أصقاع الوطن العربي لا يؤثر في البنية الفكرية للمثل.(٢٧).

لقد تخطّت الأمثال الشعبية الحدود السياسية للأقطار العربية. ونحن نلاحظ أن أمثال البوادي في الوطن العربي متشابهة لفظاً ومعنى، وأهل البوادي يأخذون هذه الأمثال على محمل الاعتبار. ويعتدون بها لتنظيم حياتهم وأعرافهم وتقاليدهم.

وسكان السواحل لهم أمثالهم التي ترشدهم إلى أنواء البحر والصيد والسفن.. كما أن أهل المدن والقرى والأرياف والسهول، نجد لهم أمثالاً تخدمهم في حياتهم.(٢٨).

وهذا التماثل والتشابه في المثل الشعبي، يدلّ دلالة واضحة: أن الوحدة الثقافية وأصولها المتميّزة قد تجاوزت نطاق اللغة العربية إلى اللهجات المحليَّة، والأدب الشعبي. ومردّ ذلك أن أمثالنا الشعبيّة، تصدر عن موروث ثقافي وديني، مبنيّ على انتماء عقائدي فكري للإنسان العربي(٢٩)، مهما تنوعت مشاربه الثقافية، وشرائحه الاجتماعية... الأمر الذي يؤكد وحدة التجربة الحياتية التي خاضها الإنسان العربي. تلك التجربة التي احتضنها الوجدان الجمعي وصاغها بالأساليب المناسبة وبخاصة الأمثال.

فضلاً عن ذلك، فإنّ وحدة التجربة الإنسانية، والمعاناة التي مرَّ بها المجتمع العربي، بل والأسس الحضارية للعوامل التاريخية والجغرافية، واللغوية، والروحية... صهرت ما يدور في خلد المرء في بوتقة واحدة، وجعلت الإنسان العربي يصدر عن وعاء واحد، مهما بعدت وباعدت الحدود بين أبناء الضاد.

وكثيرة هي الشواهد الدالّة على ذلك، وهي أكثر من أن تُعَدَّ أو تُحصى.. وسنكتفي بإلقاء بعض الأضواء على جوانب منها:

١. الجيرة:

لقد أولت هذه الأمثال الجيرة اهتماماً بالغاً، لما للجيرة من حرمة وضمانات والتزامات اجتماعية وأخلاقية، تقوم على إنكار الذات وتغليب الآخر على الأنا، وقد رأينا في موضوع المرأة وجاراتها بحث المرأة في المثل الشعبي من هذا الكتاب، أن علاقة المرء بجاره مستمدة من قوله تعالى في التنزيل:

ـ ﴿والجار ذي القربى، والجار الجنب﴾.(٣٠).

ومن قول رسول الله (ﷺ):

[ما زال جبريل يوصيني بالجار حتّى ظننت أنه سيورّثه].

كما وأن المثل الشعبي عدَّ الجار بمنزلة الأخ بقوله:

■ *جارك مثل أخاك... إن ما شاف وشك شاف أفاك.*

والجار كما رأينا يشارك جيرانه أفراحهم، ويسعفهم في ضائقتهم، ويواسيهم ويقف إلى جانبهم في مآسيهم. وفي ذلك قول المثل الشعبي:

■ *سّكر بابك.. وأمّن جارك.*

■ *رغيف برغيف... ولا تخلّي جارك جوعان.*

■ *طلوب الخير لجارك.. بتلاقيه بدارك.*

■ *جارك الأريب.. ولا أخوك البعيد.*

■ *إذا جارك بخير... أنت بخير.*

■ *الجار... أولى بالشفعة.*

إلى آخر ما هنالك من الأمثال التي تفسّر تواضع جميع الشرائح الاجتماعية، على إيثار الجار، واستنكار كلّ ما من شأنه التعرّض لحق الجيرة، قولاً وفعلاً.

وإذا نقلت لنا بعض الأمثال صوراً سلبية لروابط الجيرة، فإن هذه الأمثال لم تكن تعبيراً صادقاً عن طبيعة المجتمع، فقد كانت تطفو على سطح العلاقات

بين المحاور إشكالات فردية، لم يكن لها أساس جوهري في التعامل بين المحاورين... فهي أشبه بسحابة صيف لا تلبث أن تتلاشى. لأنّ لحمة التعامل بين المتحاور، مهما تلبدت بالغيوم لابد أن تعود إلى التسامح والتواد والإثرة في الملمّات.

٢. العمل:

والعمل كان له شأن في حياة الناس، والإنسان (الزكرت، المعدّل) لا يقبل أن يكون عالة على غيره. وما من إنسان في هذا الكون، إلاّ ويعمل ليكسب قوت يومه بعرق جبينه، لأن العمل يعطي المرء إحساساً بالقيمة والمسؤولية والمكانة. والعاطل عن العمل؛ إنسان تافه خائب، ممحوج من نفسه، مزريّ من الآخرين.

وقد أجمع المثل الشعبي على نطاق الوطن العربي، على التحذير من الكسل والتواكل، ودفع المرء إلى مواجهة أعباء الحياة رافع الرأس موفور الكرامة، وفي هذا النحو سارت على لسان الناس أمثالاً شعبية عديدة على صعيد الوطن العربي(٣٢). ومن ذلك:

■ *اشتغل بمصرية وحاسب البطّال"*(٣٣).

ويمكن أن نورد في هذا الإطار المثل القائل:

■ *حط بيت مال، وحط بطّال... ويلّلي ما بينبع بيخلص.*

■ *الغزّالة الشاطرة.. بتغزل على دنب كلب.*

■ *صنعة باليد.. أمان من الفقر.*

■ *لعاب بالماصاص.. تايجي الطيّار.*(٣٤).

٣. النقد والتوجيه:

وكان من الأمثال السائرة على صعيد الوطن العربي، ما يعمد إلى النقد المبطّن، لتقرير حقيقة، أو التذكير بموقف توافق عليه الناس، أو توجيه لوم غير

مباشــر، لغــرض الوصول إلى الهدف الأمثل، في التعامل والسلوك. ومن ذلك قولهم:

■ **يللّي ما بتزيّنه عروقه.. ما بتزيّنه خروقه.(٣٥).**

دليل على أن المرء بجوهره ومعدنه، وليس بمظهره وقشوره

وقولهم:

■ ***من امّنك لا تخونه... ولو كنت خوّان.***

لــلموقف الشــهم في الــتعامل بين الناس، فالأمانة عين الكرامة ، وهي والاســتقامة صــنوان. وفي السياق نفسه، نجد أمثالاً تطلب إلى المرء، أن يحب للــناس مــا يحبّ لنفسه، وأن يكون منصفاً سموحاً في تعامله مع الآخرين، فلا يتعالى على أحد، ولا يفتئت على أحد. كقولهم:

■ ***حط إصبعتك بعينك.. مثل ما بتوجعك بتوجع غيرك.***

■ ***العين ما بتعلى.. عن الحاجب.(٣٦).***

٤ـ البيئة:

ونجد أمثالاً تنمّ عن الملاحظة الدقيقة للبيئة، لما للبيئة من بالغ الأثر في حياة الناس، فالإنسان العربي لم يكن في يوم من الأيام أجيراً أو عبداً للبيئة المحيطة به، إنه يلاحظ ويدقق ويستنبط للتعرف إلى الأطر التي تحكم هذه البيئة للإفادة منها في حياته فهو في ذلك فاعلاً وليس منفعلاً.

فقولهم:

■ ***إذا الأمر بالطارة... الليلة مطّارة.***

■ ***دام شلاًّ... من الغرب علاّ.(٣٧).***

■ ***إذا غيّمــت باكر حمِّل عصاك وسافر، وإذا غيّمت غشيّة لاني لك مغارة دَفيّة.(٣٨)***

وغيرهـا مـن الأمثال... تدل دلالة لا لبث فيها على البعد القومي للمثل الشعبي من المحيط إلى الخليج. وبخاصة إذا ربطنا ذلك بالتصاق الإنسان بالأرض وترابط أنماط حياته.. بالدورة الزراعية، وتعلّق محاصيل هذه الدورة بأحوال الطقس، من صحو ومطر، وحرارة ورياح، على مدى الحول... مهما كان الأسلوب المتبع في الزراعة...

ـ البعد الانساني في المثل الشعبي:

نخلص من هذا أن التشابه في المثل الشعبي على صعيد الوطن العربي، يفسّر لنا الركائز الأساسية لثقافة السواد الأعظم من المجتمع العربي، هذه الثقافة التي تنبع من سلوكية متأصلة في جذور كياننا من المحيط إلى الخليج، مهما انفتحت على هذه الثقافة أشكال وأنماط من الثقافات الأخرى التي أصبحت تغزونا عبر وسائط الاتصال المعاصرة المرئية والمسموعة والمكتوبة، لأن تلك الثقافات، لابد وأن تنصهر في بوتقة عاداتنا وتقاليدنا وأطرنا الاجتماعية والسلوكية... وهي في المحصلة دليل على انتمائنا إلى الأسرة الإنسانية... فالإنسان في جميع الأحوال هو الإنسان... والخصائص الإبداعية الشعبية لا تتوقف عند الحدود السياسية بين المجتمعات، بل تنتقل عبر تلك الحدود دونما رقيب... الأمر الذي يفسر الفعل الانتشاري الذي تقوم به الإبداعات الشعبية، سواء ماكان منها بالقول أو اللحن أو الحركة والتشكيل...

وما إن ينتقل الإبداع الشعبي إلى موطن جديد، حتى يتعرض للصقل والتشذيب والتطويع إلى أن يتلاءم وينسجم مع معطيات الحياة في ذلك الموطن، ويصبح معلماً من معالم تراث ذلك الموطن، وفي هذا السياق أمكننا أن نعلل انتشار العديد من الأمثال والحكايات والألحان من موطن إلى موطن، وتقارب الثقافات بل والنزعة الإنسانية للإنسان في كل مكان وزمان. ونذكر على سبيل المثال انتشار المثل الشعبي القائل:

■ ***أنت أمير.. وأنا أمير... ومين بده يسوس الحمير.*** (٣٩).

في العديد من مجتمعات العالم، فضلاً عن انتشاره في بلدان الوطن العربي،

وقد أورد الدكتور هاني العمد ترجمة لهذا المثل على لسان الباحث سلوين شامبيون... وكلها ترجمات متقاربة لمضمون هذا المثل:

فالإسبان يقولون:

■ ***أنا سيدة. وأنت سيدة، فمن يقود الخنازير إلى الزريبة.***

والأتراك يقولون:

■ ***إذا كنت أنا الفارس... وأنت الفارس... فمن يسرج الخيول.***

والألمان يقولون:

■ ***إذا كنت أنا السيد.. وأنت السيد... فمن يمسح الأحذية.***

وبالطبع، فإن هذا لا ينتقص من أمثالنا التي تشيد بالقيم والمثل الأخلاقية والتربوية، وتنمّي بالمرء أصالة الأسلاف ومعارفهم وتجاربهم في الحياة. وتزرع في الإنسان الفضائل، وتؤصّل فيه السلوك الإنساني.

*

■ الهوامش

(١)ـ الأمثال في القرآن، ص: (٨).

(٢)ـ الفنون الشعبية في فلسطين، ص (١٨٧).

(٣)ـ معجم "درر الكلام في أمثال أهل الشام"، ص(١٤).

(٤)ـ شي: شيء، بعض. لحس: لعق.

(٥)ـ مو: ليس. إلك: لك.

(٦)ـ الديب: الذئب. أدّ: قدر، طول. إجريك: رجليك، ساقيك.

(٧)ـ السوِشّ: الوجه، المواجهة، أوّه: قوّة. الأفا: القفا: بمعنى حال غياب من يُتحدث عنه، الأندال: الأنذال، ج.م.: نذل.صداه: صدقة.

(٨)ـ صرماية: حذاء شعبي رخيص، أرادوا الدلالة على ضِعة ذلك الأنموذج من الناس، التّبن: القشّ، وهو سقط سنابل القمح والشعير. تترص: تقرص، تلدغ.

(٩)ـ العجيب: عنوا: المرء الذي يكون أمره عجباً في سلوكه، لنقله أحاديث الغير وتأويلها على هواه، وبما يثير حفيظه من يستمع إليه، يلّلي: الذي. بياخد، وبيجيب: ينقل الكلام بين طرفين ليسا على وفاق، مما يُوقع بينهما.

(١٠)ـ سورة القلم، الآية: (١١-١٢).

(١١)ـ أرادوا: كما تدين تُدان، المسلّة: إبرة كبيرة تُخاط بها المنسوجات والأشياء السميكة، كالجوت المعروف شعبيًّا بالجنفيص، ويستخدمها المنجدون والجليلاتية في خياطة سرج الخيل وبرادع السوائم. إزاز: زجاج.

(١٢)ـ حدبته: سنامه، وتع: وقع. رأبته: رقبته.

(١٣)ـ إيده: يده. فاروطية: مفرطة في الضرب واستعمال السلاح. متصّ: مقصّ. الشخنة: من سقط اللحم. شلون: كيف. شطلات: تفرّعات حادّة يستخدمها في المشاحنة والمماحكة، بل والإيذاء. حلوه: حلقه. راديو: مذياع.

(١٤)ـ بتلدّم: تقدم، العليّء: العليق، ما يعلّق في رقبة السائمة من علف بالمخلاة، قاربوا بين المرء الناكر للجميل والسائمة.

اللبيط: اللبط، الرفس، عنوا بذلك الإساءة. الطِعْنة: غرزة الخياطة. البابوج: حذاء شعبي

رخـيص. أرادوا بالمثل: عدم جدوى الإحسان لمن لا يجدي معه الإحسان. الأطاط: ج.م.قط: هرّ.

(١٥)ـ سورة الرحمن، الآية: (٦٠).

(١٦)ـ الأمر: القمر، والمثل لتذكير المرء بأصله وفصله.

(١٧)ـ سورة لقمان، الآية(١٨).

(١٨)ـ سورة الإسراء، الآية (٣٧).

(١٩) ـ البيتـنجانة: الـباذنجان. تدنانلت: تدلّت. إفّة: قفّة، وعاء من الخوص أو الجلد، الزبالة: القمامـة، من إيمتى: منذ متى. نايب: نائب، استخدموا للحيّة على سبيل التورية. برلّة: اسم علم. منين: من أين. الريحة: الرائحة. أرادوا: الرائحة العطرة على سبيل الاستنكار والاستهجان. مغنّيه: تحترف الغناء، أرادوا بالمثل التحقير.

(٢٠) ـ لـباس: سروال. الدكّة: ما يُشدُّ به السروال على الخصر. أربعتعشر: أربعة عشر. المثل كناية عن المبالغة في حب المظاهر. مطّبع: كثير الرسوم، ذات الألوان الفاقعة، التي لا تنمّ عن الأناقة والذوق. أصر: قصر وهو غرفة متميّزة بالطابق العلوي من المنـزل الدمشقي. المربع غرفة متميّزة في الطابق الأرضي من المنـزل.

(٢١) ـ "المستطرف من كل فن مستظرف" ج(١)، ص: (٣٤).

(٢٢) ـ زغـيرة: صغيرة، والمثل كناية عن التنديد بمن يتعالى على أنداده، آل: قال: ليموت: إلى أن يموت. مين : الذين. أوالبك: قوالبك قدراتك، إمكاناتك.

(٢٣) ـ نـطّ: قفـز، متجاوزاً حقّه. القفّة: أرادوا بها في هذا المثل الحضيض. اداناها: أذنيها، أي أعلاهـا. للدلالة على الزهّو في غير محلّه، وعنّ غير جدارة. بيقلد: يقلّد. الأكابر: علية القـوم. شحط جرّ. الكنادر: أحذية. صبّاط: حذاء. يزازي: يعطي جرساً موسيقياً أثناء المشي على سبيل الزهّو. طنجرة: إناء للطهو. تبأبيء: تبقبق: صوت غليان الطعام بالقدر.

(٢٤) ـ الشعب المصري في أمثاله العامية، ص: (٦).

(٢٥) ـ دراسات في المثل العربي المقارن، ص: (١٧٩).

(٢٦) ـ مجلّة التراث الشعبي البغدادية، العدد (٦-٧)، ص: (١٣)، لعام ١٩٧٤.

(٢٧) ـ الشعب المصري في أمثاله العامية. ص:(٢٨).

(٢٨) ـ الأسرة في المثل الشعبي الفلسطيني والعربي، ص:(٣).

(٢٩) ـ الأمثال العربية المتشابهة، ص: (٣٦٥-٣٦٨).

(٣٠) ــ سورة النساء، الآية: (٣٦).

(٣١) ــ سكّر: أغلق. بتلاثيه: تلاقيه، تجده. الأريب: القريب.

(٣٢) ــ معجم درر الكلام، ص: (٢٥).

(٣٣) ــ "الجمــان في الأمــثال" . رقم (٢٤٢٥)، والمصرية: نقد عثماني جرى تداوله أيام حكم محمــد عــلي لــبلاد الشام. وهو قليل القيمة الشرائية. فقد كانت كل ثلاثين مصريّة تســاوي: أبــو الخمسين، أي نحو القرش وربع القرش، من النقد العثماني المتداول تلك الأيام.

(٣٤) ــ دنــب: ذنــب، ذيل. الفثر: الفقر. المأصاص: المقصقص. يرى تيمور في الأمثال العامية (ص٣٩)، أن المــراد بالمقصوص هو الدينار يُقصُّ منه فتنقص قيمته، أما الدينار الكامل فــيعرف بــالديواني. ويذهــب العامّة إلى أن المقصقص والطيار، طائران أهليّان. يمكن لكشّاش الطيور أن يتعامل مع الطائر المقصوص الجناح، ريثما يمكنه الحصول على الطائر السليم. والمثل للحث على العمل وترك التواني والاتكالية.

(٣٥) ــ عروؤه: عروقه، أرادوا: مناقبه ومواقفه، والخروء: الخروق أي الخرق. كناية عن الملابس والمظاهر.

(٣٦) ــ معجم درر الكلام.(ص٧٣-٧٤).

(٣٧) ــ الطــارة: أرادوا: الهالــة الضوئية، التي تحيط بالقمر في ليالي الشتاء المتلبدة بالغيوم. دام: مادام. شلّا: شرّق على عاميّة البيئة الساحلية السورية. أرادوا: إذا هبت ارياح الشرقية. علّا: علّق. أي ردّت عليها الرياح الغربية الماطرة.

(٣٨) ــ أرادوا بهــذا المــثل إسداء النصح للمسافر، أن يباشر سفره صباحاً ولو كانت السماء متلــبدة بالغيوم. وإن يرجئ سفره مساء، إذا كانت السماء كذلك. لأن التغيّم صباحاً مآلــه إلى التلاشي. بسبب ارتفاع درجة حرارة الجوّ بأشعة الشمس، الأمر الذي يؤدّي إلى ابتعاد الجو عن الإشباع بالرطوبة، وبالتالي لا تسقط الأمطار. والتغييم مساءً سيعقبه الــتهطال لمــيل الجو للبرودة نتيجة لغياب الشمس وبالتالي زيادة الرطوبة الجوّية عن الإشباع مما يسبب تكاثف ما يفيض عن الإشباع بالرطوبة.

(٣٩) ــ مجلة التراث الشعبي البغدادية، العدد (٦-٧)، (ص١٣)، لعام ١٩٧٤ .

***

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- معجـــم الألفاظ والأعلام القرآنية: تأليف: محمد إسماعيل إبراهيم، دار الفكر العربي بالقاهرة ط(٢)، ١٩٨١.

٣- الأمثال في القرآن، تأليف: محمود الشريف ، دار المعارف بمصر، سلسلة اقرأ، العدد (٢٦٥).

٤- قــاموس ردّ العامي إلى الفصيح: تأليف: الشيخ أحمد رضا، دار الرائد العربي، بيروت ط (٢) ١٩٨١.

٥- قاموس المصطلحات والتعابير الشعبية: تأليف: أحمد أبو سعد، مكتبة لبنان، ١٩٨٧.

٦- معجم درر الكلام في أمثال أهل الشام: تأليف: منير كيال، مكتبة لبنان، ط (١) ١٩٩٣.

٧- قــاموس الصناعات الشامية ج: (١- ٢): تأليف: محمد سعيد القاسمي جمال الدين القاسمي، خليل العظم، دار طلاس بدمشق ١٩٨٨.

٨- قصة الزواج: تأليف: إدوار وستر مارك، ت: عبد المنعم الريادي، مكتبة النهضة المصرية.

٩- الحمامات الدمشقية: تأليف: منير كيال، مطبعة ابن خلدون بدمشق ط (٢) ١٩٨٦.

١٠- فنون وصناعات دمشقية: تأليف: منير كيال، وزارة الثقافة في سورية، ١٩٥٨.

١١- يــا شــام، في الـــتراث الشعبي الدمشقي: تأليف منير كيال، مطبعة ابن خلدون بدمشق، ١٩٨٤.

١٢- الأمثال البغدادية المقارنة تأليف: عبد الرحمن التكريتي، بغداد ١٩٦٦.

١٣- دراســات في المثل العربي المقارن، معهد البحوث والدراسات العربية بالمنظمة العربية للتربية والثقافة، بغداد، ١٩٨٤.

١٤- الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية: تأليف: عبد المجيد قطامش، دار الفكر بدمشق ١٩٨٨

١٥- الأمثال العربية القديمة: تأليف: رودلف زلهايم، ترجمة: رمضان عبد التواب، دار الأمانة ومؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧١.

١٦- وحدة الأمثال العامية في البلاد العربية: تأليف: محمد قنديل البقلي، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٨.

١٧- فلسفة المثل الشعبي: تأليف: محمد إبراهيم أبو سنة، سلسلة المكتبة الثقافية (١٩٣) عام ١٩٦٨.

١٨- مجمع الأمثال ج (٢): تأليف: أبي الفضل احمد بن محمد النيسابوري الميداني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط (٣) دار الفكر بدمشق ١٩٧٢.

١٩- الأمثال اليمانية تأليف: إسماعيل الأكوع ط (٢) بيروت مؤسسة الرسالة ١٩٨٤.

٢٠- المستطرف من كل فن مستظرف: تأليف: شهاب الدين محمد أبي الفتح الابشيهي، دار الفكر للطباعة والتوزيع، مطبعة حجازي بالقاهرة، ١٩٥٣.

٢١- الأمثال الشعبية في قلب الجزيرة العربية، ج (١- ٣): تأليف:عبد الكريم الجهيمان، دار الكتب في بيروت، ط (١)، ١٣٨٣هـ.

٢٢- معجم أمثال الموصل العامية: تأليف: عبد الخالق الدباغ. مطبعة الموصل ١٩٥٦.

٢٣- الأمثال العامية: تأليف: أحمد تيمور باشا، ط (٣)، الشركة الشرقية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٧٠.

٢٤- الكنايات العامية: تأليف: أحمد تيمور باشا ط (٣)، الشركة الشرقية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٧٠.

٢٥- الكنايات العامية الشامية وأصولها الفصيحة: تأليف: محمد رضوان الداية، دار الفكر بدمشق، ط (١) ١٩٨٨.

٢٦- قصص الأمثال العامية ج (١- ٣): تأليف: محمد صادق زلزلة ط (١) دار الجبل ١٩٨٦.

٢٧- الحكم والأمثال الشعبية في الديار الشامية: تأليف محمد سعيد المبيض، ط (١)، دار الثقافة بالدوحة بدولة قطر، ١٩٨٦.

٢٨- الشعب المصري في أمثاله العامية: تأليف: إبراهيم أحمد شعلان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢.

٢٩- حدائق الأمثال العامية: تأليف: فائقة حسين راغب، مطبعة ابن عبد الرحمن، القاهرة، ١٩٣٩.

٣٠- كتابات من الفرات، سلسلة التراث الشعبي في وادي الفرات: تأليف عبد القادر عياش، مطبعة الفرات، دير الزور ١٩٦٥.

٣١- عبارات السلوك عند أبناء دير الزور: تأليف: عبد القادر عياش، مركز الدراسات التاريخية الجغرافية، دير الزور ١٩٦٥.

٣٢- الجمان في الأمثال، دراسة تاريخية مقارنة: تأليف: جمانة طه، ط (١)، ١٩٩١.

٣٣- الأسرة في المثل الشعبي الفلسطيني والعربي: تأليف: عبد الكريم عيد الحشاش، ط (١)، المطبعة العلمية بدمشق، ١٩٨٨.

٣٤- الأحوال الجوية في الأمثال الشعبية: تأليف: علي حسن موسى، وزارة الثقافة، دمشق ط (١) ١٩٩١.

٣٥- موسوعة حلب المقارنة، م (١- ٦)، جامعة حلب، ١٩٨٣.

٣٦- ألف وخمس مئة من الحكم والأمثال الشعبية: تأليف: سيمون حمصي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط (١)، ١٩٨٦.

٣٧- أمثال دمشق الشعبية: تأليف: مطيع المرابط، وزارة الثقافة في سورية، ط (١)، ١٩٩٥.

٣٨- بعض الأمثال الشامية في منطوقها الحمصي: تأليف: محمد فيصل شيخاني، وزارة الثقافة في سورية ١٩٩١.

٣٩- الأدب الشعبي، ط (٣): تأليف: أحمد رشدي صالح، مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٧١.

٤٠- علم الفلكلور: تأليف: الكزاندر هجرتي كراب، ت: احمد رشدي صالح، وزارة الثقافة، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٧.

٤١- علم الفلكلور: تأليف: محمد الجوهري، دار المعارف بمصر، ١٩٧٥.

٤٢- الفلكلور، قضاياه وتاريخه: تأليف: يوري سوكولوف، ت: عبد الحميد حوّاس، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، المطبعة الثقافية ١٩٧١.

٤٣- دفاع عن الفلكلور: تأليف: عبد الحميد يونس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣.

٤٤- التراث الشفوي في الشرق الأدنى: تأليف: نبيل جورج سلامة، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٦.

٤٥- السيرة الحلبية، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٦٢.
٤٦- مجلـة التراث الشعبي البغدادية العدد (٦- ٧) ١٩٧٤ بحث الدكتور أحمد أبو سنّة: الغناء عند الأطفال.
٤٧- مجلة التراث الشعبي البغدادية العدد (٦) عام ١٩٨٠ بحث الدكتور كريم علكَم الكعبي، من ترانيم الأطفال، ص (٢٦- ٢٨).
٤٨- أشعار الترقيص عند العرب: تأليف: سعيد الدبوه.

المحتوى

الموضوع	الصفحة
بين يدي الكتاب	١١
المرأة في المثل الشعبي الشامي	١٥
المرأة في الصرح الاجتماعي	١٩
تفضيلهم العقب الذكر	١٨
معايشة المثل الشعبي للأسرة	٢٠
عندما يفكر الشاب بالزواج	٢٢
النسب والطمع	٢٢
البحث عن زوجة	٢٤
زواج أبناء العمومة	٢٦
الأيام الأولى من الزواج	٢٨
سلوك الزوج مع زوجه	٣٠
صور من الرجال في المثل الشعبي	٣٢
المرأة والزواج	٣٥
إنتصار سنّة الحياة	٣٦
دور أم الفتاة	٣٧
مواصفات العريس المطلوبة	٣٨
مواصفات الزوجة المطلوبة	٣٨
تعايش الزوجة	٣٩
مسوّغات معاناة المرأة	٤٢
الأسرة أيام زمان	٤٨
الحماة والكنّة	٤٨
الزوجة وحماتها وبنات حميها	٥٢
حماة الزوج	٥٣
الضراير	٥٥

زوجة الأب. ٥٦
بين السلفة والسلفة. ٥٧
مشاعر الأمومة. ٥٩
المرأة وجاراتها. ٦٢
الحواشي.. ٦٧
الطفولة.. في التراث الشعبي.. ٧٥
١-الأم العربية والطفولة في صدر الإسلام:.. ٧٥
٢-أشكال أدب الأطفال:.. ٧٦
أولاً- ما يقدمه الكبار للصغار.. ٧٧
١-اكتساب الطفولة المبكرة:.. ٧٧
٢-أصالة ما صدر عن الأمهات:.. ٧٧
٣-الاهتمام بأغاني المهد والطفولة:.. ٧٨
٤-مضامين أغاني المهد والطفولة:.. ٧٨
٥-دلالات هذه الأغاني:.. ٧٩
٦-مشاعر الأمومة في أغاني المهد والطفولة:.. ٧٩
٧-حرص الزوجة على الإنجاب:.. ٨١
آ-احتفاء الأسرة بالمولود:.. ٨١
ب- حبّهم العقب الذكر.. ٨٢
ج- وماذا عن البنت.. ٨٣
٨- أغاني الأطفال ومراثي الأحزان.. ٨٤
آ-أغاني الميلاد.. ٨٥
ب-أغاني المهد.. ٩١
جـ-أغاني الطفولة.. ٨٨
٩- ملاعبة الكبار للصغار التعليمية.. ٨٩
١٠- مشاركة الطفل اللعب.. ٩٢
ثانياً – ما يبدعه الأطفال أنفسهم.. ٩٣
آ- ألعاب الطفولة المبكرة وبدايات الانطلاق:.. ٩٣
١- دلالات ما يُبدعه الأطفال:.. ٩٣

٢-لَعِب البنات والصبيان..٩٤
لعبة الخطابين..٩٤
لعبة الشوحة الخطافة..٩٦
٣- ألعاب البنات..٩٧
لعب البنت في غرفة بالمنزل..٩٧
لعب البنت في باحة المنزل..٩٨
- لعبة خشب شابي..٩٨
- لعبة الدقّة..٩٩
- لعبة الزحطة..٩٩
٤- ألعاب الصبيان..١٠٠
- *طاء طاء طاقيّة..١٠٠
- *لعبة الطمّيمة..١٠١
ب- ألعاب ما بعد الطفولة المبكرة..١٠٢
- *لعبة الكعاب..١٠٢
- *لعبة آبال الكعاب..١٠٢
- *لعبة الدحل..١٠٣
- *لعبة يَا عَنْكَآبْ.. شدّ رِكابْ..١٠٤
- * لعبة بَرِيْ..١٠٥
- *لعبة كشّ الطيّارة الورقية..١٠٦
٥-الطفولة وشهر رمضان..١٠٧
الأطفال ومسحر رمضان..١٠٨
٦- العيد والطفولة..١١١
٧- في دارة الخوجة..١١٥
٨- الكتاتيب والطفولة:..١١٩
الحواشي..١٢١
التربية في المثل الشعبي..١٢٥
- المثل في القرآن:..١٢٧

-أحوال المجتمع في المثل الشعبي..١٢٧
-مواكبة المثل الشعبي للحياة. ١٢٧
ـ أبعاد في أمثال التربية: ١٢٨
١ ـ الاعتدال والقناعة: ١٢٩
٢ ـ إسداء النصح والتعامل:..١٣١
٣ ـ الالتزام بالأعراف والمُثُل: ١٣٣
٤ ـ حفظ اللسان: ١٣٤
٥ ـ التصدّي لناكر الجميل : ١٣٦
٦- الاستعلاء..١٣٧
ـ المفاهيم القومية في أمثالنا الشعبية:..١٤٠
١- الجيره: ١٤٢
٢- العمل: ١٤٣
٣- النقد والتوجيه: ١٤٣
٤- البيئة: ١٤٤
ـ البعد الانساني في المثل الشعبي:..١٤٥
الحواشي ١٤٧
المصادر والمراجع ١٥١
المحتوى ١٥٥

**

* للمؤلف:

* المطبوعات:

- فنون وصناعات دمشقية، وزارة الثقافة، نفد.
- الحمامات الدمشقية، ط (٢) على نفقة المؤلف، ١٩٨٦ .
- رمضان في الشام أيام زمان، ط (٢)، مكتبة النوري بدمشق ١٩٩٢ .
- يا شام، في التراث الشعبي الدمشقي على نفقة المؤلف، ١٩٨٤ .
- حكايات دمشقية، في الأدب الشعبي، على نفقة المؤلف، ١٩٨٧ .
- معجم درر الكلام في أمثال أهل الشام، مكتبة لبنان، ١٩٩٣ .
- معجم بابات مسرح الظل، كركوز وعيواظ في نصوص موثقة، مكتبة لبنان، ١٩٩٥ .
- بترول العرب وقومية المعركة، دار الحياة، ١٩٧٣ ، دمشق.
- جغرافية الوطن العربي "بالاشتراك" ، وزارة التربية، ١٩٦٨ .
- فضلاً عن العديد من الدراسات في الدوريات المحلية والعربية.

* قيد الطباعة:

- الحج الشامي إلى بيت الله الحرام، دراسة توثيقية فولكلورية.
- جزيرة أرواد، تاريخها وتراثها الشعبي بالاشتراك.

***

Ayoubieh أيوبية

M. KAYYAL

Éve Dans les Proverbes Populaires

المرأة في المثل الشعبي الشامي

في الأدب الشعبي

Hassan